

الشيبي و جبران

خليفة محمد التليسي



المركز العربي للكتاب

الشاي وجبران

خليفة محمد النليبي

الشَّيْبَانِي وَجَبْرَانِ

الدار العربية للكتاب

الطبعة الرابعة

جميع الحقوق محفوظة - الدار العربية للكتاب

١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م

الإهداء

الى المتاضلين من أجل غد أفضل والعاملين على
تحرير الشخصية العربية من راسب الماضي
وأغادل الحاضر التي تقيد انطادقتها الحضارية .

مقدمة

لماذا أحببت الشابي ؟:

سؤال يتكفل بالرد عليه هذا الكتاب ، ذلك لأن ما أحببته من الشابي ، كان كثيراً متنوعاً ، لا يقف بي عند حدود الاعجاب البسيط العابر . فهو لم يكن من الشخصيات التي تغنيك منها الوقفة العاجلة . ولكنه شخصية غنية ، سخية ، اذا عدت اليها مرة بعد اخرى فلا بد ان تخرج من مصاحبتها ب زاد جديد ، و ثروة نفسية . وأعظم ما أعجبني في هذا الشاعر الكبير ، صحة فهمه لرسالة الشعر . وما أقل الأصوات التي تنطلق من الأعماق ، كما ينطلق صوته الخافت الهامس في قصائد الحب ، والعاصف الثائر في قصائد الوطنية . انه صوت عميق ، بقية من تلك القلة الخالدة من الشعراء والفنانين الذين يغمسون أقلامهم وريشهم في الدماء ، ويرسمون بدم قلوبهم قبل ان يرسموا بالألفاظ والألوان . وتلك مزية لم تنلها

الا القلة التي اصطفها الله لابداع رسالة الفن، ورد الناس الى الحياة الفنية الرفيعة التي تجد فيها الشخصية الانسانية امتدادها .

اول عهدي بهذا الغريد ، ذلك اليوم الذي وقعت فيه على قصيدته « صلوات في هيكल الحب » ، قتلوتها في خشوع العابد ورددها في ضراعة الزاهد المتبتل ، ثم وجدتني أحفظها مأخوذاً بسحر معانيها ، وروعة تعابيرها ، ورقة موسيقاها ، وبراعة التلوين والتصوير فيها . ومنذ ذلك اليوم أخذت أبحث عن الشابي . وطفقت أجمع كل ما يصل الى يدي من قصائده حتى تكونت لدي مجموعة من شعره ، كنت حريصاً عليها حرص البخيل على كنوزه ، لأنني وجدت فيها نغمة جديدة لم ألقها فيما كنت أقرأ من شعر . وجدت الوضوح ، والعمق ، والبساطة !

وقد قمت في سنة ١٩٥٠ بإلقاء محاضرة عنه، في قاعة المعارف في موسم محاضرات رابطة المعلمين، فكان لي بذلك شرف السبق الى تعريف مواطني بهذا الشاعر العظيم ، الذي لم ينشر عنه في ذلك الوقت أية دراسة ، وكان اعتمادي في تلك المحاضرة على استخلاص الحقائق من شعره ودراسته في إطار الحركة الشعرية العامة في العالم العربي. وقد عدت الى هذه المحاضرة في العام الماضي، حين وجدت إلحاحاً من بعض الأصدقاء في نشرها، فالفيتني راضياً عن الهيكل العام الذي صيغت فيه ، ولكنني رأيت أن أتوسع في دراسة هذه العناصر مستعيناً في ذلك بما صدر من دراسات عن هذا الشاعر، وأن أنشرها مفصلة لكل جانب من جوانب هذه الشخصية ، وقد نشرت بعض فصول هذا الكتاب في صحف ومجلات طرابلس الغرب ، على ان

أغلب مقالات هذا الكتاب لم تنشر، وليس في هذه الدراسة شيء لم تسبق
الإشارة إليه في تلك المحاضرة على نحو موجز .
هذه محاولة .

ولست أطمع وأنا أدفع بها إلى المطبعة في أن تكون وافية بما أردت ،
ولم يطف بذهني أنني قد جئت فيها بشيء مذكور . حسبي منها تحية
متواضعة لهذا الشاعر الذي أحببت ..

طرابلس الغرب ١٥ ديسمبر ١٩٥٥

خليفة محمد التليسي

بين القديم والحديث

انهيار الادب العربي بانهيار القومية العربية ، وضعف بضعف شخصيتها التي اصطلحت عليها ظروف الانحطاط ، والسيطرة التركية ، ثم الاستعمار الغربي الذي أثار في الامة العربية روح التحدي ، فاستيقظت بعد غفلة ، وانتبعت بعد جمود . وهبت تسير في موكب الحياة الصاعدة ، تنشد الحرية والاستقلال .

وكان من نتائج الصراع ، بين الشخصية العربية ، وبين عوامل الانحطاط المتعددة التي تهددها بالذوبان والتفسخ ، ان تميزت لنا شخصية عربية حائرة بين اتجاهين : اتجاه بالعودة الى القديم العريق ، كوسيلة للمحافظة على عناصر الشخصية العربية ، وجوهرها الصحيح . واتجاه نحو الغرب ، والتزود بما لديه من معرفة ، واتخاذها أداة للمشاركة الصحيحة في الحضارة الانسانية ، وإيقاظ الامة العربية وبعثها .

وتمثل هذه الدعوة ، في الميدان الادبي ، المدارس الادبية الجديدة التي تزعمها جماعة من المثقفين الذين اتصلوا بحضارة اوربا ، فراعهم ما نحن عليه من تاخر وجمود . ويتمثل الاتجاه الثاني في المدرسة التقليدية التي كانت تنفر من الحضارة الاوروبية ، مخافة الذوبان فيها ، فلا يبقى لها أثر من البناء القومي الذي تحرص عليه ؛ وتعدد صور هذين الاتجاهين ،

بين متمرّد منكر للأدب العربي ومعانيه ، ومكانه من الوجود ، وبين معتدل ما يزال يجد فيه بعض معاني الروح العربية ، وزاداً انسانياً لا يخلو من ومضات رائعة ، تحاطب الانسان في أفقه الشامل .

وكان لابد من صراع بين هذين المذهبين . ذلك الصراع الذي تمثّل في الدعوة الجريئة التي نادى بها أنصار المدرسة الحديثة ، وفي النقد الذي وجهوه الى اتباع المدرسة القديمة وانصارها . كانوا مؤمنين في دعوتهم هذه بأن لا سبيل الى بعث الشعر ، الا بخلق الشعر الحي ، الذي يعبر عن روح العصر ، ويصوّر الحياة . وهو في ذلك يجب ان يكون مشدوداً الى الشعر العربي القديم بالرباط الذي تقضي به طبيعة الحياة المتطورة ، وليس حتّى ان يكون صورة منه ، ولكنه يجب ان يكون متصلاً بعصره ، أقوى ما يكون الاتصال وأوضحه ، ومصوراً للحياة الحديثة ، ولما يجري في آفاقها من معان جديدة .

وكانت بداية هذه النهضة في الشام ، وقد بدت ملامحها الاولى في شعر مطران الذي كان كان حداثاً فاصلاً بين عهدين في تاريخ الشعر العربي^(١) . وقد ترسّم خطوات مطران ، شعراء في الشرق وانثقت عن مدرسته المدرسة المجرية ، التي مضت بالتجديد الى أقصاه ، يضاهاها في الشرق جماعة الديوان وهم من الأدباء الذين اطلعوا على الادب الغربي ، وحاربوا القديم الذي كان يربط حافظ وشوقي . اذ كانوا يرون ان الشعر قيمة انسانية ، وان الشاعر انسان ممتاز ، وان امتيازها يجب ان يكون ماثلاً

(١) مطران - لاسماعيل آدم .

في تعبيره عن ذاته وتعميقه لحياة الآخرين ومضاعفتها بإطلاعهم على صور رائعة من تجربة انسان فنان . وهم يلتقون في ذلك ، مع أدباء المهجر الذين كانوا يدعون الى ان يتجه الادب الى مخاطبة الانسان ، فلا يشغله عنه شاغل من الحوادث التافهة . وكانوا ينادون بوحدة القصيدة ووحدة موضوعها ويلحون على التحرر من الصياغة التقليدية البائدة ، والعمل على خلق صياغة جديدة تزيد من ثروة اللغة، وتجدد دارس الشعر العربي، ويسعون الى ان يتخلص الشعر من الطبقات التي كان يعيش عليها ، ويعتمد على ردها ، ويتغنى بأبجاده .

كان الشاعر ، يبحث دائماً ، عن رجل يستريح الى ظل جناحه . فكانت رسالته ضائعة ، وشخصيته مهدورة ، في غرة المدح السخيف البليد الذي لا يصدر عن عاطفة صادقة ، وانما عن حرص على مصلحة زائلة . ومن اليسير ان تلاحظ ان شعراء هذه الفترة ، الا القليل منهم، لا يحملون رسالة واعية صحيحة يعيشون لها ويتخذون منها قضية حياة ، ولكنهم كانوا يسرون في ركاب زعماء معينين يوالون من والاهم ويعادون من عاداهم . هكذا فعل شوقي عندما كان يسير في ركاب الخديوي حتى امتنع عن رثاء صديقه مصطفى كامل مدة طويلة . وهكذا فعل حافظ عند توديع كرومر الذي كان يحامله لأنه كان من أصدقاء الشيخ محمد عبده . ولا شك في ان هذين الشعارين قد شاركا في التجديد، ولكنه التجديد الذي يصيب الشكل ، ويقف فلا يتعداه الى المضمون . ذلك لأن رسالة الشعر لم تكن واضحة في نفسيهما، وضوحها الآن في أذهان الشباب الواعي

الذي شعر بذاتيته ، وتعرّف من خلالها ، على الواقع العام لأمته ، فانطلق من ذلك القيد الذي كان يعيش فيه ، الى الاتصال بالحياة في أوسع معانيها ، مصوراً الواقع الاجتماعي ، ومعبراً عن البؤس الانساني ، داعياً الى اليقظة والتحرر ، منادياً بالذاتية الواضحة ، وقيام الشاعرية على الاحساس الفني ، قبل قيامها على الشعوذة ، والبهرج اللفظي ، والتلاعب بالمعاني الاخبارية التقريرية ، التي لا حظّ لها من اشراق الفن ، والتي لا تصلح لغير المحاضر وتقارير الصحافة .

ولما اصبحت للشاعر رسالة ، ونزلت من نفسه منزلة القضية التي يعيش من أجلها ، اصبحت من اليسير ، ان تحدد مكانة كل شاعر ، ومدى صلته بالحياة او انفصاله عنها . وكانت الدعوة متجهة الى الاتصال بالحياة ، ولكن بشكل جديد غير الشكل الذي تناوله شوقي وحافظ ، فكان لنا من شعرهما الوثائق التاريخية ، اكثر من الوثائق الفنية التي تدل على أصالة في الروح ، وسموّ في الذوق ، وشاعرية في الامة . وقد نتج ذلك عن طغيان البيئة على الشاعر طغياناً لم تقم معه للشاعر أية شخصية . وكان الشباب ينقمون على هذا الاتجاه ، متأثرين في ذلك بآراء المهجريين ومدرسة (الديوان) . ولا غرابة في ان نرى الشابي متأثراً على التعريف الذي يجعل من الشاعر مؤرخاً لعصره وعاداته وأخلاقه ، مؤمناً بأن الشاعرية الحقّة وقف على (أولئك الشعراء العالمين الذين يرتفعون بأرواحهم الى آفاق فسيحة أرحب وأسمى من سماء البيئة المحدودة ، متغزلين بدنيا غريبة رائعة لم تخلقها الحياة الا في أعماق قلوبهم المملأى بيهاء الكون ومثل الحياة العليا ،

وأولئك الموهوبين الذين يسبقون عصرهم ، فيغنون أشهى أغاني الجمال
وأعذب أناشيد القلب البشري لأجيال لم تخلق بعد ، وأولئك الذين لا
يصورون عادات العصر المتغيرة المتحولة ، بل عادات الحياة الخالدة على
الدهر، ولا يصفون أحاديث الوعاظ والمتكلمين والمتفلسفين، بل أحاديث
نفس الانسان التائهة في بيداء الزمان ، ولا يعلنون اسرار القصور
والجالس ، بل اسرار الأزل والأبد .

هكذا قام الشعر على الصدق في التجربة الشعرية والنظر الى الشخصية
ككيان بارز يجب ألا يضيع في التقليد . واعتمد التجديد على ركنين :
ثورة على المضمون ، وثورة على الصياغة . اما المضمون فقد تحول من
التغني بأعجاد الطبقات الى تصوير الحياة والتعبير عن العواطف الأصيلة
الخالدة في الانسان . دون ان يسعى في ذلك للحصول على مكسب ، او
الجري وراء غاية خسيسة، حسبه ان يعبر عن عواطفه لا يروم من ورائها
شهرة ولا نوالاً . وقد تفتحت عبقرية الشابي على هذه الدعوات وهذا
الصراع بين القديم والجديد ، فوجدت صدى في نفسه ، وظهرت في شعره
تابضة بالحرارة والقوة والاخلاص .

لا أنظم الشعر أبغي	به رضاء أمير
بمدحة او رثاء	تهدي لرب السرير
حسي اذا قلت شعراً	ان يرتضيه ضميري
لا أقرض الشعر أبغي	به اقتناص نوال
الشعر إن لم يكن في	جماله ذا جلال

فأنسا هو طيف يسعى بوادي الضلال
يقضي الحياة طريداً في ذلّة واعتزال

وقد ابتدأ الشابي حياته الشعرية مقلداً الشعر القديم، كعادة كل ناشئ، ولكنه سرعان ما تمرّد على هذا الادب، وحل معولاً هوى به على جذوعه الخائفة، مركزاً آراءه ومذهبه الادبي في محاضرة، أثارت ضجة كبرى في الأوساط الادبية حينذاك. وهي (الخيال الشعري عند العرب). وكل دراسة تتجاهل هذه المحاضرة مقضيٌ عليها بالفشل، ذلك لأن الشابي ضمنها آراءه في الشعر العربي القديم، واتخذ منها منهاجاً يسير عليه فيما أنتج من الشعر بعد ذلك. وهي عندي مفتاح تجربته الشعرية، وتحديد واضح لعالمها. ومن اليسير جداً ان تطبق هذه الآراء على شعره، فستجدها ظاهرة ماثلة لا تحتاج الى جهد او عناء في استخراجها. وهذه ميزة قلما تسلم للكثيرين. وبذلك استطاع الشابي ان يخلص لمذهبه اخلاصاً رائعاً، وان يظل أميناً حريصاً على هذه المبادئ التي تشرّبها وتسربت اليه من مطالعته. والعجيب حقاً، ان بعض المنادين بالتجديد في الشرق، والذين تأثر الشابي بدعوتهم، لم يسلموا في انتساجهم من الوقوع فيما أخذوه على المدرسة القديمة، اذ عادوا الى النظم على الطريقة القديمة، صياغة ومضموناً. أما الشابي فقد ظل يعيش لهذه القضية الادبية، ولم يتحول عنها رغم ما أصابه من جرّائها من عنّت وجور.

كان الشابي يعمل على بناء حياة جديدة، في صورها المتعددة، الادبية منها والاجتماعية، فلم تطق الرجعية، المضيّ معه في هذا التمرد الخالق،

ولم ترضَ لنفسها التخلي عن كسلها القاتل . فسعت الى محاربته ، متهمة اياه بالدعوة الى (أدب الاغراب ، ومحاربة أدب الاعراب) . ولم يكن صحيحاً ما اتهم به هذا الشاعر العظيم ، بل الصحيح ، انه سئم العيش في متاحف الجثث المحنطة ، فدعا الى التطور ، والسير مع الحياة التي تكره المتقاعدين المتخاذلين ، الذين يعيشون في مقابر الأجداد . وكان في دعوته هذه ، قاسياً شديداً، وكأنما كان يدرك ان هذا الداء الخبيث، الذي امتدت جذوره الى الكيان العربي ، لا سبيل الى التخلص منه ، الا بالاجهاز عليه في قسوة لا تعرف الاشفاق على المريض . ذلك طريق السلامة . وقد اندفع مع ثورة الشاب الذي وعى مفاهيم جديدة للحياة ، وحمل معنى جديداً للأدب ، فلم يرحم الضعف ، ولم يهادن الاستسلام .

وليس في هذه المحاضرة جديد مكتشف ، فقد سبق الشابي الى الملاحظات التي أخذها على الادب العربي ، باحثون من الشرق ، كالعقاد ونعيمة ، ومن الغرب ، كالمستشرقين ، ولكن حرارة الايمان ، وقوة المنطق ، والتمثل الصحيح لما يقرأ ، والتطبيق الممتاز الذي يدل على اطلاع واسع ، والاسلوب الشعري الرفاف . هذه كلها صفات جعلت منها رائعة أدبية صادقة .

على اننا نلاحظ ان الشابي ، في هذه المحاضرة ، لم ينبجُ بما أخذه على الادب العربي، وخاصة في وصف المزاج العربي بأنه مزاج خطابي ناري، يكتفي بالنظرة العاجلة، والالامة القصيرة. وأوضح شيء في هذه المحاضرة روحها الخطائية النارية المتحملة، والظلمة احياناً ، وهي جذيرة ان

تُناقش مناقشة دقيقة ، ولكن الفصل القيسم ، الذي عقده الاستاذ الحليوي في كتابه (مع الشابي) ، أغنانا عن ذلك ، ونحن ننصح بالرجوع اليه لمن أراد مزيداً من الاطلاع على آراء الشابي في الادب العربي ، والأخطاء التي أخذها عليه أصدقاؤه وخصومه .

وينعقد الاجماع على ان الشابي كان تلميذاً للمدرسة المهجرية ، والطابع الذي تركته هذه المدرسة في أدب الشابي ، لا سبيل الى إنكاره وإغفاله وتجاهله . وليس يعيب الشابي ان يتلمذ ، في بداية نشأته ، على الآخرين ، وانما يعيبه حقاً ، ان يظل عبداً للتقليد . وتلك صفة ترفع عليها ، فما كاد يبصر طريقه ، حتى استوى له في الشعر مذهب قائم على شخصية مستقلة ، تمتاز بمقوماتها الخاصة ، ومنهجها المدروس . ولا يعيبك ان تعثر على ذلك ، في فهمه للشعر ورسالة الشاعر ؛ فقد كانت الشابي متأثراً على حصر الشعر في الدائرة الضيقة التي كان يعيش فيها شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء الأقطار العربية ، وكان متأثراً في ذلك بالادب المهجري ، وبنقذات العقاد وميخائيل نعيمة ، التي وجهته الى الاستفادة من أخطاء مدرسة شوقي وحافظ . فلتقرأ كيف يحدد مفهوم الشاعر في هذه الفقرات :

« الشعر ، وهل يُسال عن الشعر ؟ ان الشعر هو الحياة نفسها ، في حسننها ودماستها ، في صمتها ، وفي هدوئها وثورتها في نومها ويقظتها ، وفي كل صورة من صورها وكل لون من ألوانها . الشعر ، وهل يسأل عن الشعر ؟ ان الشعر ، يا صاحبي ، هو ما تسمعه وتبصره في ضجة الريح وهدير البحار ، وفي بسة الوردة الحائرة يدمدم فوقها النحل ، ويرفرف

حواليها الفراش ، وفي النعمة المغرّدة يرسلها الطائر في الفضاء ، وفي
وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقول ، وفي دمدمة النهر المتدفق نحو
البحار ، وفي مطلع الشمس وخفوق النجم ، وفي كل ما تراه وتسمعه
وتكرهه وتحبه وتأمله وتخشاه . فهل بعد ذلك تسألني عن الشعر ؟

ويجده ميخائيل نعيمة ، في كتابه « الغربال » ، بهذه العبارات :

« الشعر هو غلبة النور على الظلمة ، والحق على الباطل . هو ترنيمة
البلبل ونوح الوراق ، وخير الجدول وقصف الرعد . هو ابتسامة الطفل
ودمعة الثكلى ، وتورّد وجنة العذراء وتجعدّ وجه الشيخ . هو جمال
البقاء وبقاء الجمال . الشعر لذة التمتع بالحياة ، والرعدة أمام وجه الموت .
هو الحب والبغض والنعيم والشقاء ، هو صرخة البائس وقهقهة السكران ،
ولهفة الضعيف وعجب القوي . الشعر ميل جارف ، وحنين دائم الى ارض
لم نعرفها ولن نعرفها . هو انجذاب أبدي لمعانقة الكون بأسره ، والاتحاد
مع كل ما في الكون من جاد ونبات وحيوان . هو الذات الروحية التي
تتمدد حتى تلامس أطرافها أطراف الذات العالمية . وبالأجمال ، فان
الشعر هو الحياة : باكية وضاحكة ، وناطقة وصامتة ، ومولولة ومهملّة ،
وشاكية ومسبحة ، ومقبلة ومدبرة » .

ولا يعسر على القارئ ان يتبين مدى هذا التأثير ، كما لا يعسر عليه
ان يتبين تأثير العقاد في المفاهيم الشعرية . فلقد كان يكتب في ذلك الوقت

مقالات موجّهة الى شوقي في تصحيح معنى الشعر^(١) .

وقد كان العقاد يؤمن بامتياز الشاعر الذي يتجلى في تعميقه للتجربة الانسانية . وكان الشابي يقول في طريقة التعرف على الشاعر الانساني : « لكي تدرك هاته الحقيقة ، فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك ، ويجعلها تحسّ بتيارات الوجود اكثر مما تحس وتدرك من معانيه وأصواته ، اكثر مما ألفت ان تدرك ، وينسيك وجودك الانساني لحظة ، لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك ؟ أقول : انظر ، اذا كان من هذا النوع ، فاعلم انك تقرأ شعراً إلهياً لا تجود بمثله الحياة كثيراً ، وإلا فاعلم انك تقرأ مثلاً دون ذلك » .

كان يأخذ على القصيدة العربية تركيزها للتجربة الشعورية وإفراغها في قالب من الحكمة ، يعقلها ويفقدها حرارة الانفعال ، متأثراً في ذلك بآراء شعراء المدرسة الحديثة ، ومنهم ميخائيل نعيمة الذي يقول في الغربال : « وكم هم الشعراء الذين يستعيزون عن وصف عاطفة بذكر نتائجها الخارجية » . وهذا الحكم يعرضه الشابي عرضاً فنياً موفقاً في هذه الكلمات : « ان القصيدة العربية كحديقة الحيوانات فيها من كل لون وصنف ، والشاعر العربي ، اذا ما أراد ان يبسط فكرة من أفكاره ، ألقاها في بيت واحد او في جملة واحدة ، اذا استطاع ، اما الشاعر الغربي

(١) كان الشابي يعجب بالعقاد اعجاباً شديداً ، ويؤمن ايماناً عميقاً بقدرته الادبية ، وقد كان له تأثير واضح في صياغة أحكامه عن التجديد الشعري ، كما كان يتعصب له ضد الرافعي .

فانه يعرض امام النفس ، الصورة او الاسباب والعوامل التي حرّكت في نفسه ذلك الرأي ، بصورة شعرية تحليلية ، لا يلقيها كما يُلقى الحجر الصلد عارياً جامداً ، او كما يلقي الأساتيد تعاليمهم ، ولكنه يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال^(١) . ولا نعدم أمثلة أخرى للتأثير القوي الذي طبع به الادب المهجري الشابي . ولقد كان هذا الادب نسمة عذبة هبّت على الشرق ، فاندفع كثير من شباب الشعر في الشرق الى تقليده ذلك التقليد الذي كانت لنا من نتائجه هذه النهضة .

وكانت تونس كغيرها من البلدان العربية ، التي تضافرت عليها عوامل الانحطاط والاستعمار .

كان الشعر الشائع هو ذلك الموصول الجذور بالمدرسة القديمة ، في أغراضها وتعاييرها واعتمادها على التزييق في الشعور ، فكان الشعراء طبعة مكررة . لا يتفرد شاعر منهم بمزية ، ولا يُعرف بخاصة من الخصائص ، ولا يُذكر بمذهب من المذاهب في الحياة ، او بموقف من المواقف الاجتماعية . حفلة من الحفلات ، او سهرة من السهرات كافية لأن تهزّهم فتبعث فيهم أصواتاً خامدة خافتة كأنها تنبعث من وراء القبور . أما الحياة في محيطها العام الشامل ، أما الفهم الصحيح لرسالة الشعر ، ومكانة الشاعر ، وتقديس الفن وعبادته ، فذلك شيء ظلّ بعيداً عن فهم أولئك السائرين في قافلة الأجيال القديمة ، التي تضرب على غير هدى ، في ظلمات الأمس البعيد . ولم تكن تونس فقيرة الى المزاج

(١) الخيال الشعري — للشابي .

الشاعر ، ولكنها كانت فقيرة الى الشعر الصحيح ، حتى اذا جاء هذا الغريد أغناها ورفع ذكرها في كل مكان، وجعل من روحها تياراً متدفقاً هادراً في محيط الادب العربي الحديث .

ولم يكن الشعر في تونس مؤهلاً للمشاركة الواعية الفعالة ، لأن أغلب الشعراء كانوا يعيشون على التقليد ، حتى اذا انطلق هذا الغريد يحمل خصائص الذاتية المتفردة الأصلية ، رأوا في نبوغه خطراً على مجدهم وشهرتهم ، فتنادوا لكفاحه ومحاربته .

. وكانت الحركة الادبية الجديدة متمثلة في شبيبة واعية ، اطلعت على الادب الغربي ، وتابعت نهضة الادب العربي الحديث . وكانت تلتهم فيهم شديد ، كل ما يصل اليها من ثقافات الغرب والشرق ، وتجذ في نفسها استجابة الى الدعوات القائمة في الشرق العربي ، منادية بالتجديد ، وكان حتماً ان تجد هذه الدعوات طريقها الى المجتمع المغربي ، فهو جزء لا يتجزأ من الكيان العربي، فاعتنقها الشباب وكانوا من دعايتها وأنصارها . فقد راعهم الحمود الادبي ، وآلمهم ألا يكون لبلادهم مشاركة واعية في الحاضر ، كما كانت لها في الماضي ، فاندفعوا في قوة وعزم الى تصحيح المفاهيم الادبية ، وكانت مهمة عسيرة، فليس أعسر من النهوض بالتجديد. ومحاولة اصلاح الادب ، معناها اصلاح الأمة كما يقول الاستاذ العقاد ، نلص ذلك فيما وُجّه من نقادات صائبة الى فنون الادب ، ويهمننا منها ، بنوع خاص ، الشعر الذي كان يشكو تخلفاً في الروح ، يبعده عن مجارة التيار العربي في الشرق .

وفي هذا يقول الاستاذ الحليوي :

« شعراؤنا كثيرون لا جرم ، لكن معظم شعرهم مشكوك في قيمته ، متناقش في نفعه . وليس يعسر على النقد ان يطلع الناس على زيفه ، ويبرهن عن خلوه - الا القليل - من الاحساس والشعور ، وإقفاره من العاطفة والخيال ، وليس يعيبه ان يتركه - بعد عرضه على الحكم - كَوَماً من الألفاظ والأوزان ، وهشيماً من التقاطيع والتفعيلات .

علم الله ، اننا لا زلنا بعداء عن الادب الحي القوي ، الذي يصدر من القلب ، فيدخل الى القلب ، ويمتزج باللحم والدم ، ويهز النفس هزاً ويدكئها . وها نحن أولاء تشتاق قلوبنا الشعر الصادق الحي ، فلا نظفر به الا في دواوين معلومة للشعراء الأقدمين ، وها نحن أولاء تتوق نفوسنا الى الشعر الوطني الحماسي ، فنستعده من شعراء الشرق الذين خاضوا بحره ، وصارعوا موجه المتلاطم ، حين رماهم القدر بالتكبات والأرزاء ، وساق اليهم عادي الدهر ، الأحداث الهائلة والخطوب الجسام ، فقاوموا المحتلين ، وتغنّوا بالحرية ، وحلموا بالوحدة العربية »^(١) .

ولعل أفدح ما كان يشكوه الشعر حينذاك ، ضعف الايمان به كقضية فنية ، يستحق الحياة هن أجلها ، والتفرغ لها كما يتفرغ العابد المتصوّف لعبادة ربه . تلك هي طريق النبوغ ، وفي هذا يقول الشابي :

« .. الحقيقة انهم ما زالوا بعيدين عن الحياة في فئهم ، حياة رفيعة سامية ، والاندماج فيه بكل ما لهم من روح وحسّ وتفكير وخيال ،

(١) الشابي - كتاب البعث .

حتى ينطبع شعر كل واحد منهم بطابعه الذي لا يشاركه فيه غيره . وما برحوا ينظرون اليه كثافة من نوافل النفس ، لا ضرورة من ضروراتها ، ولهو ساذج يتسلى به المرء في سامة الوحدة وملل الفراغ ، لاجد صارم يتصل بأعمق أعماق الحياة ، ومن ثم كانوا لا يمنحونه ما يجب له من التقدير والاحترام ، ولا يتخرجون ان يسفوا به الى صغائر الاشياء وسخافاتهما^(١) .

وأكد أجزم ان العربية في شعرها الحديث لم تعرف شاعراً اتخذ من الشعر قضية يعيش من أجلها كما اتخذها الشابي ، وذلك سر من أعظم أسرار الشهرة التي يتمتع بها أدبه ، والتي تمهد له مكاناً في كل قلب . قد كان صادق الشعور ، صادق التعبير عما يختلج في نفسه . وكان أميناً في حمل الرسالة الادبية الفنية الرفيعة حتى تضخم إيمانه بها . « وكادت العواطف عنده تصبح مرضاً ناهشاً ، فعاش الشاعر ينهث وأتعبه الشعر حتى قتله . ان الشاعر كان هو السل الاكبر في حياة هذا الشاعر المشتعل ، ومن أجله عاش يتعذب بكل جمال يمر به ، وإن كان عذابه لذيذاً »^(٢) .

وذلك واضح في كثرة ما ناجى به الشعر الذي أحبه حباً عميقاً .
وحياة شعرية هي عندي صورة من حياة أهل الخلود .

ويقول من قصيدته « مناجاة » ، التي تكشف عن مقدار تقديسه للشعر الذي يتحساه في الصباح لينسى ما تقصى في أمسه المفقود ، ويناجيه

(١) كفاح الشابي — للاستاذ كرو « ص ٤٨ » .

(٢) نازك الملائكة — الآداب البيروتية ، يوليو ١٩٥٤ .

في المساء ليلها بحمياها عن ظلام الوجود ، وليس يهمه ، بعد ان يعبر عما
في نفسه ، ان يزدرى الناس أغانيه :

فيك ما في الوجود ، حبّ بنو الدنيا قصيدي أم لم يحبوا قصيدي
فسواء على الورود أفي الغدران فاحت أم بين نهد وجيد

شخصیۃ الشایبی

عش بالشعور، وللشعور فانما
 دنياء كون عواطفٍ وشعورٍ
 شيدتْ على العطف العميق، وانها
 لتجفّ لو شيدت على التفكير
 وتظلّ جامدةً الجمال، كثيبةً
 كالهيكل المشدّم، المهجور
 وتظل جامدةً الجمال، كثيبةً
 كاللوت مقفرةٌ بغير سرور
 لا الحب يرقص فوقها متغنياً
 للناس بين جداول وزهور
 متورّد الوجنات سكران الخطى
 يهتّ من مرح، وفرط حبور
 متكللاً بالورد، ينشر للورى
 أغصان «ورد اللذة» المنظور
 كلا، ولا الفنّ الجميل بظاهر
 في الكون تحت غمامة من نور

مموشحاً بالسحر ينفخ نايه المش
 ببوب بين خائل وغدير
 او يلحس العود المقدس، واصفاً
 لاسوت، للآيام، للديجور
 ما في الحياة من السرّة، والآسى
 والسحر، والذّات، والتغدير
 أبداً، ولا الأمل المجنح منشد
 فيها بصوت الحالم المحبور
 تلك الأناشيد التي تهب الورى
 عزم الشباب، وغبطة العصفور
 واجعل شعورك في الطبيعة قائداً
 فهو الخبير بتيهها المسحور
 صحبَ الحياة صغيرة ومشى بها
 بين الجماجم والدم المهدور
 وعدا بها فوق الشواهدق باسماً
 متغنياً من أعصرٍ ودهور
 والعقل رغم مشيبه ووقاره
 ما زال في الآيام جد صغير
 يمشي فتقرعه الرياح فينثني
 متوجّحاً، كالطائر المكسور

ويظل يسأل نفسه متفلسفاً
متنطعاً في خفة وغرور
عما تحجبه الكواكب خلفها
من سرّ هذا العالم المستور
وهو المهشّم بالعواطف ، يا له
من ساذج متفلسف مغرور
وافتح فؤادك للوجود وخلّه
للّيم ، للأمواج ، للديجور
للّج تنثره الزوابع ، للأسى
للّهول ، للآلام ، للمقدور
واتركه يفتح العواصف هائماً
في أفقها المتلبّد المقرور
ويخوض أحشاء الوجود مقامراً
في ليلاها المتهيب المحذور
حتى تعانقه الحياة ويربوي
من ثغرها المتأجّج المسجور
فتعيش في الدنيا بقلبٍ زاخرٍ
يقظ الشاعر حالمٍ مسحور
في نشوة صوفيّة قدسيّة
هي روح هذا العالم المنظور

مظهر التفوق في كل شاعر عظيم ، هو ان تستطيع التعرف على شخصيته من شعره ، وأن تخرج من قراءتك له، بنموذج تحسّ فيه خفقة الحياة ..

وفي هذا الإطار ، يقف الشابي شاعراً ، متفرداً بخصائصه الذاتية ، معروفاً بسماته الخاصة ، واضحاً بعواطفه وأفكاره .. وان قصيدة « فكرة الفنان » لتقدمه خير تقديم ، وتكشف عن جوهر شخصيته في صدق ، وأمانة ، وحرارة ، فتغني عن عديد من التعريفات التي وُضعت لهذه الشخصية . وهي وحدها المفتاح الذي يُدار للنفاذ الى أعماقها . واحسب انها لو وضوحها لا تحتاج الى مفتاح ، شأن الشخصيات التي تعييك بتعقيدها ، وتزويرها ، واختفائها وراء الأتعة .

ولعل وقفة قصيرة ، عند البيئة العامة ، التي كان يعيش فيها شباب العرب ، في بداية هذا العصر، تلقي فكرة عامة عن حقيقة الجو الذي كان يعيش فيه الشابي .

لم يعرف الشباب العربي، في جميع عصوره التاريخية ، أزمة صراع خائقة ، تبلغ من العمق ما تبلغه الازمة التي يمر بها في الوقت الحاضر .

وقد بدأت مظاهر هذه الازمة منذ ان أطلّ الاستعمار بوجهه الكالـح على البلدان العربية ، ومنذ ان تغلغل فيها ، ناشراً الفوضى والجهل ، والعماية . مستغلاً كل ما لها من إمكانات ، استغلالاً ألقى بالشباب الوطني للعامل الى الفراغ ، الذي نبّهه الى الخطر الزاحف . فوجد مقاليد أمره تُدار من قبل الأجانب الواغلين ، ولا حيلة له في توجيه سياسة بلاده ،

او العمل على إسعادها . فهو مضروب على يده، محجور عليه العمل في هذا السبيل ، الا اذا كان ما يعمل به متمشياً مع سياسة الواغل الدخيل . وإلا فان أقل ما يمكن ان يتعرض اليه ، محاربة قد تنتهي به الى الموت ، او العذاب المميت .

وفي مثل هذا الجو ، لا تجد الشخصية الانسانية ، مجالاً للامتداد والنمو. والشخصية الانسانية، انما تقوم على دعامين هما الحرية والمسؤولية. فلا بد لهذه الحرية من مسؤولية ، تلزمها وتضعها عند الحدود التي لا فساد فيها .

الشخصية الحرة المسؤولة هي التي صنعت التاريخ. وشبابنا في مطلع هذا القرن، لم يستطع ان يجد سبيلاً الى هذه الشخصية، لأن العوامل كانت متضاربة على محاربتة ، وإعاقة نموه ، ومقاومة أهدافه العاملة على إسعاد الوطن العربي . ولا غرابة في ان يعمل المستعمر الدخيل ، على قتل هذه الشخصية ، فتلك طريقته في المحافظة على كيانه . وانما الغريب حقاً ، ان تجد هذه المحاربة نصيراً من البيئة ، بما كان يحيط بها من تقاليد زائفة وعادات مريضة، تسربت اليها من عصور الانحطاط، وأناخت على الوطن العربي ، حتى جعلت حياة الشباب ظلمة حالكة .

تلك ، هي الحقائق المرّة ، التي انتبه لها شباب العصر . ولما كانت الحياة ، التي تتكامل فيها الشخصية الانسانية ، محجورة عليه ، من المستعمر الذي استخلص خير ما في البلاد العربية ، محجورة عليه من البيئة الاجتماعية التي تغلّ يديه ، ورجليه ، وتلقيه الى اليأس القاتل ،

يجالد ويصارع لم يجد ما يهون على نفسه هذه الرزايا والخطوب ، الا ان يعيش في عالم من الأحلام والأوهام ، في عالم صنعه الخيال ؛ ذلك المارد الجبار ، الذي يسعف الانسان كلما انسدت امامه الطرق وأغلقت الابواب .
ووجد هذا الخيال ، ووُجدت معه الانطوائية التي أخذت تحتل من قلوب الشباب الواعي أسمى مكان ، جاعلة شعارها التعلق بالرومانسية . فكان لنا من ذلك هذا المزاج الحزين القائم المتشائم ، في كل ما أنتج الشباب حينذاك .

كان الصوت الباكي الحزين ، أحب الأصوات الى القلوب ، لأنه يحمل في حزنه وبؤسه ، صورة الحياة التي يحياها الناس ، ويعصر من ذوب قلوبهم ، قطرات فيها الحسرة ، والأسى والألم .

وجد الشباب ملجأ في هذه الرومانسية ، فاقبلوا عليها إقبال الظامىء على الشراب العذب ، فقد كانت تحقق لهم ما تعذر عليهم تحقيقه في عالم الواقع تحقق لهم هذا العالم المثالي ، الشاعرى ، بما فيه من ألوان الحياة الممتعة العميقة ، تلك الحياة التي ضاعت منهم ، في غمرة الواقع ، المتعفن ، الذي كانت تعيش فيه بيئاتهم .

وقد ساعد على تمكين هذا المذهب في النفوس ، اعترافه بالشخصية الانسانية ، حتى ليرى كثير من الباحثين ، انه في اكتشافه هذا لا يقل أثرأ عن الاكتشافات العلمية التي غيّرت معالم التاريخ .

ولكن هذه الشخصية ، ما عرفت ذاتها ، وحقيقتها ، ومكانها من الإطار الاجتماعي ، الا لكي تستقبل الآلام والأحزان ، لأنها لم تكن قادرة

على ان تغير شيئاً من الواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه البيئات العربية ، وكل سلاحها قطرات من الدمع ، تسكبها على هذا الكيان المريض ، وتاوهات مفعجة ، ترسلها على هذه الأمة التي تعاورتها الحن ، وقضت على منابع الحياة فيها ، فنضبت بعد تدفق ، وأجذبت بعد خصب ، وأقفرت من الامكانيات الرائعة ، بعدما كانت في منزلة تهابها جميع العناصر المعادية . والشباب في تلك الفترة ، لم يكن قادراً على غير التحليق في العوالم الرفيعة التي يعود منها ، وكله يأس وتشاؤم . وأعلى أمانيه ان تمتد لها يد باطشة تحوّلها في لحظات الى بيئة فاضلة ، زاخرة بإمكانات الخلق والابداع .

لقد ثار كثير من الكتاب ، على هذا اللون من التشاؤم الذي كان شائعاً في البلدان العربية ، مؤمنين بأن مثل هذا الاحساس لا يمكن ان يساعد على البعث والنهوض . انه أخلق بالنائحات النادبات منه بالرواد الذين يتصدّون للزعامة ويقفون للريادة . وكان لهم في هذا الرأي بعض الحق ، وليس كل الحق ، لأنه يغفل جانباً هاماً ، حين يردّ المسؤولية ، في هذا المزاج القاتم الحزين ، الى الخالقين المبدعين ، ويغفل البيئة التي ضنت عليهم بالتححرر ، وبخلت عليهم بالميدان الذي تتحقق فيه معاني الشخصية العاملة ، المنتجة . ويلخص جبران هذه المرحلة خير تلخيص ، عندما يردّ على ناقديه الذين يلومونه على التشاؤم الذي يسري في كلماته :

« إن كان هناك من يريد ان يبدل نوحى بالضحك ، ويحوّل اشمزازي الى الانعطاف ، وتطرّف في الاعتدال ، فعليه ان يُريني بين الشرقيين

حاكماً عادلاً ، ومشرعاً مستقيماً ، ورئيس دين يعمل بما يعلم ، وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه .

هذه هي بعض العوامل ، التي صنعت كآبة الأدباء وتشاؤمهم ، على انها لم تكن كآبة خالصة ، فقد كان انتاجهم يتأرجح بين الاستسلام الباكي ، والتمرّد العنيف ، إذ أدرك بعضهم ، ان البكاء والحزن والعويل ، أسلحة لا تجدي ، في تحقيق الواقع المنشود ، فما كانت الحياة تستسيغ النوح والبكاء ، وهي التي تمجّد السائرين في موكب المستقبل الباسم ، الطامحين الى التشييد والبناء .

وتدفق التيار ، ليطلع على الناس بتمرّد ينتهي بالشخصية الانسانية الى اقصى آمادها ، حين يجعلها كل شيء ، وما عداها باطل وقبض الريح ، فالفرد الذي ضاع في سياسة التقاليد ، والانسان الذي ذاب في غمرة العبودية التي يفرضاها المجتمع ، لم يجد مناصاً من الاقبال على هذا التمرد ، لكي يستردّ ، وينتزع ، من بيئته ، كل ما ضنت به من ألوان الحرية ، العاملة على خلق الانسان الكامل ، آله ان يظلّ أسيراً للتقاليد والمجتمع ، وحزّ في نفسه ان تكيّف هذه التقاليد مصيره ، وتكيّف حياته على النحو الذي تريد ، ولو كان ذلك لا يتلاءم مع استعداداته ، ولا مع قوانين العصر التي تضع الانسان في المكان الاول ، وتحفل بشخصيته ، على انها أثن ما في الوجود .

وكان الايمان بهذا المذهب نوعاً من ردّ الفعل على المذاهب التي شاعت

في الشرق ، والتي كانت تدفع الانسان الى الرضى بجميع ألوان الجور والاستعباد ، على انها قدر مقدّر له .

فاذا تمرّد المتمرد ، كان الردّ الذي يواجهه كل حركاته : ذلك حكم القدر . وما كان القدر ليرضى للانسان ان يظلّ أسيراً للعصائر البائسة التعيسة ، وما ألقته السماء الى هذه الارض ، ليعيش صوراً البؤس والعبودية ، ولكنها أرادت له ان يحقق كمال انسانيته ، في تحقيقه لكمال حريته ومسؤوليته .

وفي هذا الاطار يجب ان نلتبس آخر مراحل التطور الفكري عند الشابي ، ذلك التطور الذي اكتملت صورته في قصيدة « ارادة الحياة » ، بما تحمل من معاني التمرد والطموح والدعوة الى الحياة .

وقد تفتحت عبقرية الشابي ، في بداية هذا العصر ، فوجدت في الرومانسية الشائعة في كتابات الكتّاب حينذاك ، تحقيقاً لأحلامها وآمالها . وكان كل شيء في الجو الادبي ، مساعداً على تمكين هذا المزاج الرومانسي فيه . وكان هذا المزاج ، الذي ظهر في شعره ، هو الطابع المميز لشباب ذلك العصر ، وهو سر الذئوع ، والشهرة التي كان يكسبها كل أديب ، او شاعر او فنان . وقد كانت قراءاته كلها من النوع الرومانسي الذي أنتجه رواد هذا المذهب في الغرب ، ومنهم : جيته ولامارتين ، او رواده في الشرق كجبران . وكانت البيئة التي يعيش فيها ممهدة لهذا المذهب ، بما كانت تفرضه على الفرد من قيود اجتماعية ودينية وسياسية .

وعند السياسة يجب ان نقف لنقرأ هذه الأسطر ، التي تبين لنا حقيقة

الجو الذي كان يعيش فيه هذا الشاعر الغريد . ذلك الجو الملغم الذي أتلفت فيه قوى الاستعمار ، كل معاني الحرية ، وأهدرت الكرامة الشخصية بما كانت تسنّه ، من قوانين جائرة ظالمة . فقد أصدرت سنة ١٩٣٦ قوانين « قضت بها على جميع الحريات العامة وبينها حرية الصحافة ، وأصبح كل فرد في تونس ، لا يستطيع ان يطمئن على نفسه من ارهاق السلطة الفرنسية ولو كان في عقر بيته ، إذ أضحي سبعة لأقصى العقوبات على ما يفوه به من أحاديث في مجالسه الخاصة » .

ثم عززت السلطة هذه التشريعات الجائرة ، بأوامر أخرى صدرت في ٢٧ مايو سنة ١٩٣٣ ، أعطت بمقتضاها للمقيم العام الفرنسي ، حق اعتقال أي فرد بدون أية محاكمة ولو صورية^(١)

ولون آخر من ألوان الاضطهاد الجائر الذي يكابده الشباب ، هو هذا الحجر الفكري الذي يعمد اليه المترمتون ، وذلك القيد الذي يفرضونه على الفكر المتحرر . وما أسرع ما تدفع به الى ظلمات الفكر والالحاد ، اذا طلع على الناس بما يغير المألوف ، او يلقي في أعماق النفوس ، الفهم الصحيح للواقع المريض الذي تعيش فيه . ولا يزال من أخطر أمراض الشرق ، وأفتكها ، وأفدحها ، انه بيئة لا تتسع للرأي الحر ، مهما كانت صور هذا الرأي . ولا يزال النموذج الذي نفتقده ، هو ذلك الذي يلخصه فولتير في هذه العبارة الخالدة : « قد أخالفك في الرأي ، ولكنني مستعد ان

(١) هذه تونس - للحبيب عامر ، ص ٧٦ .

أدافع حتى الموت عن رأيك لكي تقوله. ذلك أرقى ما تطمح اليه النفوس
الكريمة . ولكن نزعة المحافظة ، الضاربة جذورها في العالم العربي ، لا
تزال ترى في الرأي الحر عدواً يُخشى خطره. ولذلك كانت تتجه الى وأده
والتقضاء عليه ، وسلاحها دائماً ، التلويح بالكفر ، والاخراج من الايمان .

والشاببي قد عرف ضروباً من هذا البلاء الذي ألقى في نفسه هذه
الكآبة العميقة الجارحة، وبثَّ في أنغامه هذا الحزن المرير. وشاهد صوراً
من هذا الجور الذي يلمُّ بأبناء الحياة الذين يحملون شعلة الرأي الحر . ولم
تكن عبثاً هذه القطعة ، التي يصوِّر فيها ما يتعرض اليه المصلح الذي
يتصدَّى لحمل رسالة الاصلاح :

لست أبكي لعسف ليل طويل
او لرَبْع غدا العفاء مراحه
انما عَبرتي لخطبٍ ثَقِيل
قد عرانا ولم نجد من أزاحه
كلما قام في البلاد خطيب
موقف شعبه يريد صلاحه
أخذوا صوته الإلهي بالعسف
أماقوا صداحه ونواحه
ألبسوا روحه قيص اضطهاد
فاتك شائك يردُّ جماحه !!

وتوَّخَّوا طرائق العسف والارهاق
 معه ، وما توَّخَّوا السباحه
 هكذا المصلحون في كل صوب
 رشقات الردى اليهم مُتَّاحه

تقوم الرومانسية على الايمان بالعاطفة ، وتقديس الشعور ،
 والاستخفاف بالعقل ، والتهوين من شأنه ، بل تحقيره ، لأنه يصيب الحياة
 بالجفاف ، فيفقدنا أجمل ما فيها ، وأجمل ما فيها بلا خلاف ، ما كان
 نتاجاً للعاطفة ، وقد كانت العاطفة كل شيء في حياة هذا الشاعر الرومانسي ،
 وكانت يقظة الاحساس ، رسالته التي عاش من أجلها . فلا مجد للنفوس
 من غير هذه اليقظة ، ولا خلود لها الا اذا اتخذت من الشعور بالذات قوة
 دافعة الى السمو والتعالي . وما تميزت الأفراد عن بعضها الا بمقدار نصيبها
 من هذا الشعور . « ومن شعره بنفسه حق الشعور احترامها ، وسماها عن
 مواطن الضعة والحقارة . ومن شعره بالحياة حق الشعور ، لم يستطع ان
 يكون بوقاً يردّد صدى غيره ، ولا بركة آسنة تعكس صفحتها ظلاله ،
 بل كان بحراً رحيباً داوياً ، يدمدم بها في أعماقه من قوة وعزم ، وأهوال
 يقظة روحية عميقة » .

وفي قصيدة « فكرة الفنان » يصوّر الشاعر ايمانه بالعاطفة ، وما تبعثه
 في النفس من الآمال العذاب ، وأثر الفن الصادر عن العاطفة في تجميل
 الحياة التي لولاها لكانت كالبيت المتهدّم المهجور . ويستخفّ بالعقل ،
 فيراه صغيراً ، مغروراً ، عاجزاً عن اكتشاف أسرار الوجود ؛ تلك

الأسرار التي لا يمكن اكتشافها الا عن طريق العاطفة ، التي تتجاوب مع الكون ، وتندمج فيه اندماجاً صوفياً ، مستشعرة لذة النشوة الروحية ، المقدسة. ان العاطفة عند الشابي، هي التي تهدي الانسان سبيل الاحساس بالجمال ، والتشوق الى سحر الوجود ، وما فيه من رائع فتّات ، تفني النفس الشاعرة في جماله الأخاذ .

وواضح ان الرومانسية كانت ثورة على النزعة العقلية الفلسفية في القرن الثامن عشر . ذلك القرن الذي شاع فيه الايمان بالعقل ، والاعجاب بقدرته على اكتشاف الحقائق المجهولة وإدراكها ، وتفهم أسرار الحياة . فكان المذهب الرومانطيسي ردّاً فعلياً قوياً ، على هذا الجفاف العقلي ، وانصرافاً كاملاً الى العاطفة ، وايماناً عميقاً بقدرتها على إدراك أسرار الوجود .

والشابي يلخص هذا المذهب خير تلخيص ، في قصيدته السابقة التي بناها على تمجيد العاطفة والزراية بالعقل :

والعقل رغم مشيبه ووقاره
ما زال في الأيام جدّ صغير
يمشي فتقرعه الرياح فيثنى
متوجّعاً كالطائر المكسور
ويظلّ يسأل نفسه متفلسفاً
منتظّفاً في خفّة وغرور

عما تحجب الكواكب خلفها
من سر هذا العالم المستور
وهو المہتم بالعواصف ، ياله
من ساذج متفلسف مغرور

ولكن العاطفة قد أفسدت عليه حياته ، وأصابته بدائه القتال الذي
حطمه وأودى به . وهو في نضارة الشباب ، كما أفسدت كثيراً من أحكامه
حين أوهمته بأنه ليس من طينة الناس :

أنت كالزهرة الجميلة في الغاب
ولكن ما بين شوك ودود
وبنو الناس كالقروود ، وما أضيع
عطر الورود بين القروود .

وتتحقق في هذا الشاعر جميع صور الرومانسية ، مما فيها الخروج
عن مالوف العصور القديمة ، والثورة على التقاليد الاجتماعية والأدبية ،
والنقمة على الأوضاع الفاسدة ، والامتنياز بالذاتية الخاصة ، والعكوف
عليها ، والتعبير عما يجري في جوانحه من صراع عاطفي عنيف .

الشیخ ابی وجیه بران

تتفق أغلب الدراسات على تأثير جبران في الشابي ، ولكنها تقف صامته ، عند تحديد مدى هذا التأثير . وهذه الكلمة محاولة متواضعة ، لتحديد الصلة بين الشابي وجبران . وتصحيح الوهم الذي علق ببعض الأذهان ، فصور لها أن أثر جبران في الشابي لم يتعدّ حدود التشابه في الصياغة وطريقة الأداء . والدراسة الواعية لانتاج هذين الأدبيين، تكشف مدى الأثر العميق الذي طبع به جبران الشابي ، وتوضح إنه كان من أخلص تلاميذه وأنبغهم . ولعل الأدب المعاصر لا يعرف بين شعراء الأدب الحديث ، من وضع فيهم تأثير جبران كما وضع في الشابي .

الشابي تلميذ نابغ لجبران .

والتلمذة تعني التشابه في الخصائص الفنية ، وفلسفة الحياة . فإلى أي مدى كان الشابي متأثراً بجبران في هذين الناحيتين ؟

الحب والحرية والتمرد ، هي العناصر البارزة التي تقوم عليها فلسفة جبران ، أو مذهبه في الحياة ، وهي التي تكوّن مضمونه الأدبي ، وينبثق منها رأيه في الحياة الشرقية ، وتحدد له الأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقها . وقد علم القارئ من الفصول المتقدمة ، أن الحياة الشرقية ، في أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن ، كانت حياة غارقة في ألوان من

الجمود والعبودية ، متخلفة عن الركب الحضاري ، مستغلة من قبل الاجانب الراغلين . وقد أدرك شباب العرب هذه الحقيقة المرّة ، فأمنوا بأن الحرية قوام كل شخصية انسانية . ومن هنا كان اندفاعهم الى محاربة مظاهر الضعف التي كانت شائعة في الشرق العربي ، فاتجه بعضهم الى محاربة التقاليد البالية التي كانت تشد المجتمع الى ظلمات العصور الغابرة . وفي هذا الميدان يبرز جبران ، فقد كان أدبه ثورة عاصفة «تقتلع الأنصاب التي أنبتتها الأجيال» ، ودعوة حارّة الى النهوض ، وبمباشرة الزمان .

وقد بلغت حملاته درجة من العنف لا يقرّه عليه الكثيرون من يشفقون على المريض . وكان يرى الاشفاق أشد أنواع «المخدرات» الشائعة في الشرق ضرراً ، ويؤثر عليه الألم الذي تحدّثه الأدوية الناجعة . ويكره الاعتدال ، «لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحقيقة» ، بل انه ليمعن في ثورته على بني قومه ، فيكرههم لأنهم يكرهون المجد والعظمة ، ويحتقرهم لأنهم يحتقرون انفسهم ، حين يلقون بها الى الرجعية التي أخذت فيهم الحياة «والحياة عزم يرافق الشبيبة، وجدُّ يلاحق الكهولة ، وحكمة تتبع الشيوخ . اما انتم يا بني امي، فقد ولدتُم شيوخاً عاجزين، ثم صغرت نفوسكم ، وتقلصت جلودكم ، فصرتم تتقلبون على الاحوال وتترامون بالحجارة» .

وهي ثورة تعيد الى الذهن ثورة الشابي على شعبه الذي كان يراه غير جدير بالحياة :

لست يا شيخ للحياة باهل انت داء يبيدها وتبيده

كما يراه طفلاً لاعباً بالتراب ، والأخطار محدقة به :

أيها الشعب انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس

وقد انتهى جبران في أدبه ، الى الثورة على كل قديم ، وآمن بأن
« بلية الأبناء انما تأتيهم من ميراث الآباء . ومن لا يحرّر نفسه من عطايا
آبائه وأجداده ، يظل عبداً للأموات حتى يصير من الأموات » . ومثل
هذه الصرخة تحمل في ثناياها ردّ فعل على مجتمع كان يقدر الحياة الغابرة .

« فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي ، ويميلون الى الامور السلبية
المفككة ، ويكرهون المبادئ والتعاليم الايجابية التي تلسعهم وتنبّسهم من
رقادهم العميق المغمور بالاحلام الهادئة . انما الشرق مريض تناوبته العلل ،
وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم وألف الألم ، وأصبح ينظر الى أوصابه
وأوجاعه كصفات طبيعية ، بل كخلال حسنة ، ترافق الارواح النبيلة
والأجساد الصحيحة ؛ فمن كان خالياً منها عُدت ناقصاً محروماً من المواهب
والكالات العلية » .

ولما كان من أبرز مظاهر هذه الحرية ، مجاربة التخلف الاجتماعي ،
ومقاومة كل ما يعوق تحرير الشخصية الانسانية ، فقد ظهرت في أدب
جبران ، دعوة الى احترام الحب وتقديسه . فارتفع بالمرأة ، في أدبه ، عن
الحدود المادية ، وعبّد أمومتها ، وكان تغزله بها بعيداً عن التدني الى
الاعراض الجسدية . وكان يقول : « ان الكتاب والشعراء يحاولون
إدراك حقيقة المرأة ، ولكنهم الآن ، لم يفهموا أسرار قلبها ومخبات
صدرها ، لأنهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات ، فلا يرون غير

خطوط جسدها ، او يضعونها تحت مكبرات الكره ، فلا يرون فيها غير الضعف والاستسلام .

وهو مذهب تأثر به الشابي ، كما يتضح ذلك في الفصل الذي نعتقه للمرأة في شعره .

والتمرّد صفة بارزة في هذه الفلسفة ، التي كانت تهدف الى ان تعيد للانسان كرامته ، وتعمل على تحريره من جميع القيود . ولذلك كانت حملة عنيفة ، موجّهة الى الكهانة ، فيرى جبران « ان الكهانة هي الحرفة الاولى التي ابتدعها الانسان ، بدون حاجة حيوية او داعٍ طبيعي لها » . ويسلط نيران غضبه على رجال الدين ، سواء في ذلك الامام المسلم والقس المسيحي . وتسري الى الشابي مثل هذه العقيدة ، فلا يحجم عن القول :

مُلئ الدهر بالخداع ، فكم ضلّ الناس من إمام وقس

وقد أصيب الشابي ، كما أصيب جبران ، بنتائج هذه الثورة ، فاتّهم الاول بالخروج على الدين ، واتهم الثاني بالتطرّف ومحاربة الكنيسة . وقد كان لذلك أبلغ الأثر في احساسهما بالغربة ، في مجتمع لم يقدر البواعث الخلسة التي كانا يصدران عنها ، فلم يفهم أغاني نفسيهما . فكان جبران ينشد في ألم زائد : « انا غريب في هذا العالم ، وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة ، غير انها تجعلني أفكر أبداً ، بوطن سحري لا أعرفه ، وتملأ أحلامي بأشباح أرض قصيّة ، ما رأتها عيني . انا غريب ، وليس في الوجود كله من يعرف كلمة نفسي . انا شاعر أنظم ما تنثره الحياة ،

وأنتشر ما تنظمه . ولهذا انا غريب ، وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنيا ،
وتحملني الى وطني .

وكان الشابي يحسّ بالغربة في بلد لم يفهم أناشيده :

اني انا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطرباً بأحزان الشبية والشيب

يا صميم الوجود كم انا في الدنيا غريب أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي

ولم يسلم هذا الاحساس من التناقض الذي يبدو في هذه الحيرة، والتردد
بين الانطوائية والاتصال بالناس . فالشابي الذي يشكو الغربة في هذه
الآيات ، يراها في آيات اخرى ، سعادة يحرص عليها الرجل الرشيد :

والسعيد السعيد من عاش كالليل غريباً في أهل هذا الوجود

وقد انطوى قرأ هذين الادييين على معانٍ كثيرة ، أبرزها تقديس
الطموح والدعوة الى التطور . حتى لينصب جبران من نفسه ، حفاراً
للقبور ، يوارى الثرى كل من لا يسير مع العاصفة .

وهو يلخص فلسفته في قصة « البنفسجة الطموح » ، التي استبدت
بها رغبة التجربة، حين أصغت الى الحقيقة الخالدة « انما القصد من الوجود
الطموح الى ما وراء الوجود » . وقد كان في ايمانه بهذه الفلسفة ،
مستهدفاً محاربة الخضوع والاستسلام لفلسفة القضاء والقدر ، التي كان

يراهما مخدراً خطيراً من مخدرات الشرق ، تعوقه عن اليقظة ، وتريد في نومه واستسلامه .

وكان الشابى يؤمن بالطموح ايماناً عميقاً . وكان يبحث في شعبه ، عن صورة المغاور ، المفتوح ، المتطلع الى ما وراء الوجود . ومن هنا كانت هتافته المشهورة :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

هذه القصيدة الخالدة التي تعلن للناس ، ان الطموح حبيب الحياة وروح الظفر ، ، يجب ان نبحت عن العناصر التي كانت تغذي جذورها ، في أدب جبران ؛ في فكرتها العمامة ، وفي تشايبها ، وسوف تكشف المقارنة الواعية عن حقائق بالغة الأهمية .

وشعر الشابى معرض حافل بأمثال هذه المعاني الثائرة على العيش في ظلام القديم ، الداعية الى نور المستقبل . وهما يتشابهان في مصادر هذه الوطنية ، فكلاهما انطلقت وطنيته من الاصطدام بالتخلف الاجتماعي ، المستسلم الى الجمود .

أما التشابه في الخصائص الفنية، فتلك صفة واضحة في اتفاق الادبيين على تجسيد الفن ، والسمو به عن الاغراض التافهة. ولعل جبران قد ألقى في نفس الشابى مثل هذا التقدير ، فقد كان ثائراً على الهبوط بالشعر الى الاهتمام بالتوافه الاجتماعية ، وهي ثورة قام عليها صرح الادب المهجري ، الذي اتخذ من الفن رسالة بعث وإحياء، فصب نيرانه الى التقاليد الادبية

التي تعنى بالهرجة اللفظية، والزخرف البديعي، وآمن بأن نصيب الشاعر من النجاح، يحدده رصيده الفني، وملكته الشاعرة. وهذه وحدها خالقة اللغة، حتى يرى جبران، ان قوة الابتكار، انما تكمن في لسان الشعراء، المخلصين لأنفسهم وفنهم.

امتاز أدب جبران، بقيامه على الصدق الشعوري، والانفعال الحاد، والاعتماد على بساطة الأداء وقوة الإيجاء، وهو ذو اسلوب تصويري، ينتزع صوره ومشاهده من الطبيعة. وهذه مزية تفرّد بها جبران في أدبنا المعاصر، وقد أسعفته في ذلك ملكته المصورة القادرة على خلق الصور الرائعة. ولنا لنلمح أثره واضحاً في الشابي الذي زاد من مطالعته، وعكف على كتبه. ولولا خشية الإملال والإطالة، لعرضنا على القارئ أمثلة عديدة للصور والتعابير الجبرانية، في شعر الشابي، وبعضها اصبح أبياتاً قائمة بذاتها.

يقول جبران :

« من يهوى النور فالنور يهواه »

ويقول الشابي :

« ومن ناجت النور أحلامه يباركه النور أنى ظهر »

ويقول جبران في غربته بين قومه : « ثم ألتقي برهط من الشيوخ، فيومثون نحوي بأصابع وثيقة قائلين: هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان » .

وذلك ما قاله سدنة الماضي في الشابي ، وهي عبارة جبرانية نظمها في نسق رائع :

« قد أضاع الرشاد في ملعب الجن فيا بؤسه أُصيب بمس »

وأثر جبران أثر واضح في كثير من قصائد الشابي . ولكني احب ان أقف عند قصيدة « النبي المجهول » ، فهي ، بما تحمل من أفكار متمردة ، ذات صلة بعيدة ، بأدب جبران وطريقة أدائه . ولست أشك إطلاقاً ، في ان الشابي قد استوحى بعض مقاطع هذه القصيدة من كلمتين لجبران بعنوان « بين ليل وصباح » ، و « خليل الكافر » ، وان دراستهما قد علمت في ذهنه ، حتى أخرجت لنا تلك الصورة . وتقوم الكلمة الاولى لجبران على السخرية من قومه ، الذين تفتنهم المظاهر ويخدعهم البهرج ، فيتعامون عن الجوهر الصحيح .

« لقد أزهرت نفسي في الربيع وأثمرت في الصيف ، ولما جاء الخريف جمعت أثمارها في أطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق ، فكان العابرون يتناولون منها وياكلون ، ثم يسرون في سبيلهم . ولما انقضى الخريف ، وتحولت تهاليله الى اللولولة ، نظرت فلم أرَ في أطباقى سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لي ، فتناولتها وأكلت ، فالفيتها مرة كالعلقم ، حامضة كالحرصم » .

« كانت بالامس فكرتي سفينة تتقلب بين امواج البحار ، وتلتقل مع الأهواء من شاطئ الى شاطئ . ولقد كانت سفينة فكرتي خالية إلا من سبعة اكواب طافحة بالوان مختلفة ، تشابه ألوان قوس قزح بنضارتها .

وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار ، فقلت : ساعود بسفينة فكرتي الفارغة الى ميناء البلد الذي ولدت فيه . ثم أخذت أطلي جوانب سفينتي بألوان صفراء كشمس الغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كذوب الشفق ، وأرسم على شراعها ودفتها رسوماً غريبة ، تجذب العين وتبهج البصيرة . ولما انتهيت من عملي ، وقد ظهرت سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين : البحر والسماء ، دخلت ميناء بلدي ، فخرج الناس للملاقاة بالتهليل والتعظيم ، وأدخلوني المدينة ضاربين الدفوف ، نافخين الزمور . فعلوا ذلك ، لأن خارج سفينتي كان مزخرفاً بهجاً . ولم يدخل احد جوف سفينة فكرتي ، ولم يسأل احد ماذا جلبت فيها من وراء البحار ، ولم يدر احد اني عدت بها فارغة الى الميناء . عند ذلك قلت في سري : لقد ضللت الناس ، وبسبعة اكواب من الالوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم . وبعد عام ، ركبت سفينة فكرتي وأبحرت ثانية . ملأت سفينة فكرتي بنفائس الارض وغرائبها ، وعدت الى ميناء بلدي قائلاً : سوف يمجديني قومي ، ولكن عن جدارة ، وسيدخلوني المدينة منشدين مزميرين ، ولكن عن استحقاق . ولكن لما بلغت الميناء ، لم يخرج احد للملاقاة ، ودخلت شوارع بلدي ، فلم يلتفت الي أحد .

ووقفت في ساحاتها ، معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الارض وطرائفها ، فكانوا ينظرون اليّ والضحك ملء أفواههم والسخرية على وجوههم ، ثم يتحولون عني . فعدت الى الميناء كثيباً مستغرباً ، ولكنني ما لحت سفينتي ، حتى فطنت لأمر كنت مشغولاً عنه بمنازع أسفاري

ورغائبها . فهتفت قائلاً : ان امواج البحار قد محت الطلاء عن جوانب
سفينتي فبان كهيكل من عظام ، وعفت الارياح والانوار وحرارة
الشمس الرسوم عن أشرعتها ، فظهرت كاثواب رمادية بالية . لقد جمعت
طرائف الارض ونفائسها في تابوت يعوم على وجه المياه وعدت الى قومي ،
فنبذوني لأن عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية .

لقد تركهم متوجهاً الى مدينة الاموات مفكراً بأسرارها . اما الشابي
فقد أنشدنا هذه القطعة الرائعة ثم ذهب الى الغاب :

في صباح الحياة ضمخت اكوابي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها اليك فأهرقت رحيقي ودستَ يا شعب كاسي
فلمت ثم أسكتُ آلامي وكفكت من شعوري وحسي
ثم نصدت من أزاهير قلبي باقة لم يمسها اي انس
ثم قدمتها اليك فمزقت ورودي ودستها اي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً وبشوك الصخور توجت رأسي
ها انا ذاهب الى الغاب علّي في صميم الغاب أدفن نفسي

ولسنا في حاجة الى التاكيد بأن التغني بالغاب تعمة جبرانية ، وان
التتويج بالشوك صورة مسيحية ! وقد ذهب الى الغاب، وعاش بين طيوره
وأشجاره مفكراً في اسرار الوجود .

وكان في ذلك شبيهاً ببطل العاصفة الذي كان يطلب الوحدة ، « لأن
في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الخالية ،
لأن فيها نور الشمس ورائحة الازهار وأنغام السواقي . طلبت الجبال ،

لأن فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف وأغاني الخريف وعزم الشتاء .
جئت الى هذه الصومعة المنفردة ، لأني أريد معرفة اسرار الارض والدنوّ
من عرش الله . وهو لم يفرّ من الناس الا بعد ان تحقق من فشل الرسالة
التي ينادي بها وإعراضهم عن مبادئه السامية وأهدافه البناءة . وفي هذا
الركام من المفساد يبدو له كل شيء باطلاً : « ليس بين أباطيل الحياة سوى
امر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها . ليس هناك غير شيء
واحد . هي يقظة النفس . هي يقظة في النفس . هي يقظة في عمق اعماق
النفس . هي فكرة تفاجيء وجدان الانسان على حين غفلة ، وتفتح
بصيرته فيرى الحياة مكتتفة بالانغام ، محاطة بالهالات ، منتصبه كبرج من
النور بين الارض واللا نهاية . هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج
فجأة في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصد ساجحة مرفرفة
في الفضاء الواسع . هي عاطفة تهب على قلب الفرد فيقف مستغرباً
مستهجناً كل ما يخالفها ، كرهاً كل شيء لا يجزئها ، متمرداً على الذين لا
يفهمون اسرارها . هي يد خفيفة قد أزال العشاء عن عيني وأنا في وسط
الاجتماع بين اهلي واصحابي ومواطني ، فوقفت مندهلاً مدهوشاً قائلاً في
نفسي : ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين اليّ ، وكيف عرفتهم
وأن لقيتهم ولماذا اقيم بينهم ، بل لماذا اجالسهم وأحادثهم ، هل انا غريب
بينهم ، ام هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي وأسلمتني مفاتيحها ؟ ان اليقظة
الروحية هي أخلق شيء بالانسان ، بل هي الغرض من الوجود . »

ويقظة الاحساس ، ذلك المبدأ الذي قدّسه الشابي وجعله كل شيء

في حياته ، ليس سوى فكرة جبرانية . فاليقظة التي تجعل بطل جبران غريباً بين الناس ، لا ينقاد لتعاليمهم ولا لتقاليدهم ، لأنه يحس بنفسه ويشعر بذاته ، فيكره لها ان تذوب في اية صورة من صور العبودية ، هي اليقظة التي تملأ عبقرية الشابي شعوراً بنفسه وبالحياة : « ومن شعر بنفسه حق الشعور احترامها وسماها عن مواطن الضعة والحقارة ، ومن شعر بالحياة حق الشعور لم يستطع ان يكون بوقاً يردد صدى غيره ، ولا بركة آسنة تعكس صفحتها ظلاله ، بل كان بحراً رحيباً داوياً يدمدم بما في اعماقه من قوة وأهوال يقظة روحية عميقة » .

ان الشابي قد تأثر بالادب المهجري ، وتأثر بجبران بنوع خاص . والباحثون في حاجة الى ان يلتفتوا الى ادب جبران اكثر من اي اديب آخر ، وهم في غنى عن التخبط والتعسف والتعويل على الظن والتخمين . فأسلوبه النثري متأثر بجبران ، وأسلوبه الشعري متأثر بجبران ، وأفكاره متأثرة بجبران . ولا مكان لفوزي المعلوف في هذا الشعر ، فلا الروح ولا الصياغة ولا المبدأ .

والمشابهة بينه وبين جبران اعظم من ان توحىها المصادفة او وقوع الحافر على الحافر ، ولكنها المشابهة التي تنتجها التلمذة ، تلمذة من عكف على دراسة جبران وأدبه . ومن هنا يبدو لنا خطأ الدكتور ابو شادي الذي كان يعتبر الشابي تلميذاً من تلاميذ مدرسته الشعرية . والحق الذي لا مراء فيه ، ان التجاوب الذي كان بينه وبين الشابي انما هو تجاوب شكلي

لا يتعدى الصياغة اللفظية. اما التغني بالنور فصفة بارزة في ادب جبران، وقد سبق بها ابا شادي .

لقد التقى الشابي بمدرسة ابولو لقاء رفيق على درب واحد، ولم يلتق بها لقاء مُريد يتلمذ ويستفيد .

مرة اخرى نقول انه اذا أُريد فهم الشابي والمدارس الادبية التي أثرت فيه وعملت في ادبه ، فانه يجب ان نلتفت الى جبران بصفة خاصة . ذلك لأن النقمة على التخلف ومحاربة الكهانة ، وتقديس الحرية ، واحترام الشخصية الانسانية ، والايمان بالطموح ، وعبادة الفن ، والركون الى الطبيعة ، وبساطة الأداء في التعبير ، والصدق في الشعور ، والعبارة التصويرية ... كلها اشياء تتلمذ فيها الشابي على جبران .

وبعد ، فان هذه الكلمة لا تدعي اكثر مما لها ، وقد أعلنت في بدايتها انها محاولة . وهي اذا وفقت الى توجيه نظر الباحثين الى اثر جبران في الشابي ، ودراسته دراسة واعية متفهمة ، فقد حققت ما كانت تحرص على تحقيقه .

الوطنية في شعر الشابي

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ أين الطموح والاحلام ؟
 أين يا شعب روحك الشاعر الفنان ؟ أين الخيال والالهام ؟
 أين يا شعب فنك الساحر الخلاق ؟ أين الرسوم والانغام ؟
 إن يم الحياة يدوي حواليك ، فأين المغامر المقدم ؟
 أين عزم الحياة ، لاشيء .. الا الموت والصمت والأسى والظلام ؟
 عمر ميت ، وقلب خواء ، ودم لا تشيره الآلام
 أي عيش هذا وأي حياة ؟ رب عيش أخف منه اللحم

كل شيء يعاطف العالم الحي ويدكي حياته ويفيده
 والذي لا يجاوب الكون بالاحساس عبث على الوجود وجوده
 كل شيء يساير الزمن الماشي بعزم ، حتى التراب ودوده
 كل شيء إلاك حي عطوف يؤنس الكون شوقه ونشيد
 فلماذا تعيش في الكون يا صاح وما فيك من جنى تستفيده
 لست يا شيخ للحياة بأهل ، انت داء يبيدها وتبيده
 انت قفر جهنمي لعين ، مظلم قاحل ، مريع جوده
 لا ترف الحياة فيه ، فلا طير يغني ، ولا سحب يجوده

انت يا كاهن الظلام ، حياة تعبد الموت ، انت روح شقي
 كافر بالحياة والنور ، لا يصغي الى الكون قلبه الحجري
 انت دنيا يظلها أفق الماضي وليل الكآبة الابدي
 مات فيها الزمان والكون ، الا أمسها الغابر القديم القصي
 انت قلب لا شوق فيه ولا عزم ، وهذا داء الحياة الدوي
 انت لا شيء في الوجود ، فغادره الى الموت ، فهو عنك غني
 والشقي الشقي في الأرض شعب ، يومه ميت وماضيه حي

أؤثر ان أأخذ من هذه القصيدة الرائعة نقطة انطلاق في تحديد وطنية
 الشابي ، ذلك لأنها تحمل خطوطاً عريضة واضحة تدل على مدى احساسه
 بضرورة البعث والتطور ، وتشير الى الاهداف التي يريد لها لمجتمعه ،
 وهي في عنفها وقسوتها أدل على نواحي الضعف التي كان يرزح الشعب
 تحت عبئها ، ونواحي القوة التي يتطلع اليها الرواد من الشباب .

ولا بد هنا من الإشارة الى ان الشرارة الاولى في وطنية الشابي انما
 اندلعت من اصطدامه بالواقع الاجتماعي المتخلف . انها وطنية صارخة ،
 وحملاتها نارية عنيفة ، ولكنها لم تكن موجهة الى الاستعمار الذي يكبل
 مجتمعه ويعوقه عن الحياة ، بمقدار ما هي موجهة الى هذه النزعة التي
 حبست انفاس الشعب وقيدته فلم ينطلق ، وشدته الى العصور القديمة
 البالية ومفاهيمها العتيقة التي فقدت معناها في نفوس الشباب الواعي
 المتفهم لرسالته في الحياة .

وقد قضت ظروف الشرق التي يعيشها منذ نهاية القرن الماضي ، بأن

يعاني شبابه ألواناً من الصراع مع قوى متعددة كانت تعمل كلها على إبادة وسحقه، ممثلة في التخلف الرجعي والاستعمار البغيض . وكانت مسؤولية الشباب مسؤولية فادحة، مسؤولية الانسان الواعي الذي تحيط به ظروف عصبية ، تحتم عليه ان يحمل رسالة تتجه في جوهرها الى خلق الروح المتحررة المتحدية الآملة التي تجهد في اثبات شخصيتها وتأكيد حقها في الوجود ، وابرز مكانتها منه ، والتخلص من رواسب ووراثات الاجيال الغابرة ، بما فيها من مفاهيم عتيقة ومنطق بليد. فقد كان - وما يزال - من أبرز صفات المجتمعات الشرقية، عبادة الماضي عبادة عمياء ، والعيش فيه وفي صورته والايان بكل قيمة ، دون تمييز او تحقق من جدارتها بالحياة . والماضي في حقيقته تراث عزيز على كل شخصية انسانية كاملة ، ولكنه الاعزاز الذي يجب ان يتخذ نقطة انطلاق ووسيلة الى التفوق والاجتياز، لا الوقوف عنده وعبادته عبادة تحجر الحياة المبدعة ، وتجمد القوى الخالقة ، وتجعل حياة الناس صورة من حياة المتاحف والقبور . وتلك ظاهرة بارزة في رسالة الشابي الوطنية ، فهو لم يكن كافراً بالقديم العريق، ولكنه كان كافراً بالعقلية التي تريد إيقاف الناس عنده، فلا تسمح بتخطيه والتفوق عليه ، فتسد بذلك منابع النبوغ والابداع في الامة، حتى ليحسد حاضرها ماضيها لما فيه من صور الحياة البائسة . وليس في الارض أشقى من شعب يعيش على أجداد تاريخه وحياته الحاضرة خالية من كل مجد :

والشقي الشقي في الارض شعب يومه ميت وماضيه حي

وهكذا كان شعبه ، او هكذا كان الشعب العربي ، يعيش على أجداده

الماضية قانعا باجترار مآثرها. والركون اليها والاستئانة الى تخديرها وما فيها من رائع الاحلام والاوهام . اما الحياة المقبلة ، الحياة المتطورة التي تسير مع الزمن وتبعد غدها اكثر من عبادتها لماضيها وأمسها الغابر الذي غيَّبته حجب الظلام. اما هذه الحياة فقد كان بعيداً عنها ، بفعل التخلف الذي تمثله طبقة تستثمر غفلة الشعب وجهله ، وبفعل الاستعمار الذي لا يساعده شيء على تمكين حياته وقواعده، كما تساعده هذه الروح الانهزامية التي تعيش في ظلام العصور .

ولقد كان الشابي مندفعاً مع ثورته على شعبه ، حتى لينكر عليه كل قوة ولا يراه خليقاً بالحياة لأنها غنية عنه ، فهو لا يفيدنا بشيء ولا يسير معها ولا يذكي وجودها ولا يساهم في تقدم الركب الحضاري ... وينطلق صارخاً في تمرد عنيف :

انت لا شيء في الوجود فغادره الى الموت فهو عنك غني

ولكنه يعود مرة ثانية الى مناداة هذا الشعب، مؤمناً بقوته وفعاليتها وإمكانياته الرائعة التي لم يتسنَّ لها الانطلاق من أسر الماضي لتكون خير أساس في تدعيم النهضة . انها قوة عبقرية ، ولكنها مكبلة بظلمات العصور :

انت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمسي

انت في الكون قوة لم تمسها فكرة عبقرية ذات بأس

قيود الماضي هي التي علمته عبادة الموت ، والكفر بالحياة المتطورة ، والإشاحة عن النور الهادي والأشواق الطامحة ، والعزم الباني الذي يهزأ

بالصعاب ولا يبايى بالعقبات . لقد جمدته في مفاهيمها البالية ولم تسمح
لعينيه بمعانقة النور ، نور الحقيقة ، نور الحياة المتطورة . لقد مات في
نفسه كل شيء الا أمسه البعيد ، فلا عجب اذا هتف الشاعر به مراراً :

انت دنيا يُظلُّها أفق الماضي وليل الكآبة الأبدية
مات فيها الزمان والكون إلا أمسها الغابر القديم القصي

وماذا يريد الشابي من شعبه ؟

هذه القصيدة ، وغيرها من قصائده الشائرة ، تبين أهدافه وتكشف
عنها . فلقد كان ينشد في شعره المجتمع الذي تتكامل له شخصيته التي
تتجلى في تقدميته الشاملة بمختلف ميادين الحياة . تقدمية تسير مع الزمن
وتماشيه ، ولا تقف عند الحدود الضيقة للمفاهيم التاريخية . تقدمية تتجاوب
مع الكون وتتفاعل مع الحياة ، وتضيف الى التراث الانساني انتصارات
جديدة في مختلف الآفاق العلمية والفنية . تقدمية تحقق رسالة الحياة ، ولا معنى
لهذه الرسالة اذا لم تكن انطلاقة متمردة تساهم في إغناء العالم وتطويره .
والمجتمع الذي يكفر بهذه الحقائق مجتمع فاشل ميت غير جدير بالحياة ،
فهو داء يجب ان تعمل على إبادته قبل ان يبيدها :

انت قفر جهنمي لعين مظلم قاحل مريع جوده
لا ترفُ الحياة فيه ، فلا طير يغني ولا سحاب يجوده

هذه هي حياة شعبه - كما يراها - حياة خالية من كل صور الحضارة
الانسانية ، حتى تبدو في جفافها كالصحراء القاحلة : لا تحتضن الطير ،

ولا تنبت الزهر ، ولا يجودها السحاب . ومثل هذه الحياة كانت تذيب مهجة الشابي ، وتلقي في نفسه النعمة على الجمود . وصراعه مع مجتمعه ليس سوى صراع الحركة الخالقة المبدعة مع الركود الجامد الميت . وقد آمن أن طريق النهضة والتفوق هو يقظة الحس ؛ ولذا أخذ يشدد على هذه الظاهرة ، حتى يرى أثرها في تقدم المجتمعات أشد مفعولاً من الحرية . وأبرز صفات هذه اليقظة الحسية ان تمنح المجتمع ذاتية متفردة ، وشخصية متكاملة ومشاركة واعية متفهمة .

« اذا تيقظ الاحساس في روح الشعب تحركت في صدره - رغم كل شيء - تلك الاشواق الطامحة والرغبات الجارحة التي كانت مكبلة نائمة في ليل الدهور . واذ ذاك يشعر بنفسه ، واذ قلنا يشعر بنفسه فقد قلنا كل شيء . ويعلم انه عضو في هالة المجموعة البشرية عليه واجب السعي والعمل في سبيل كمال الانسانية المنشود . في سبيل مثل الحياة العليا . في سبيل الحق والقوة والجمال » .

تلك هي المنزلة التي كان يريد لها مجتمعه ، منزلة ترتفع به عن التبطل والخنول الى الطموح والحياة الخصب . وما اكثر ما قرأ في شعره وكتاباتة . من تمجيد لهذه اليقظة « ان مجد النفوس يقظة حس » و « وان يقظة الاحساس هي روح الحياة المنتجة الولود التي تصقل العبقريّة وتؤجج نيران النبوغ » . لقد كان يرى في هذه الصفة دعامة تحقيق الشخصية الوطنية التي تبدو على أتمها في الاستقلال الفني والعلمي ، والتفوق الحضاري بصفة عامة .

وهو لا يستطيع ان يتصور لمجتمعه شخصية من غير هذه الصفات .
ولذا كان هتافه منطوياً على تلك الأسئلة المؤلمة عن مظاهر الحياة الراقية :
أين الرسوم التي تدل على ارتفاع في ذوق الامة ؟ اين اين الأنغام التي تعبر عما
يحتلج في نفسها ؟ اين الطموح الذي لا يستريح الى الحاضر الموجود ولكنه
يتطلع الى المستقبل المنشود ؟ اين المغامر المقتحم الذي يغزو آفاق المعرفة
بعزيمه لا تعرف الفتور ، ويعيش حياته كما يجب ان يعيشها الانسان
الكامل ؟ .

وحين أعياء العثور على معاني هذه الأسئلة ، لم يتردد في ان يتهم شعبه
بالجمود والتخلف ، وعدم التجاوب مع أفراح الحياة وأحزانها .

عمر ميت وقلب خواء ودم لا تثيره الآلام
أي عيش هذا وأي حياة رُب عيش أخف منه اللحم

انها ثورة عنيفة ، ثورة من يريد ان ينقل مجتمعه في يوم وليلة الى
مجتمع شاعري فاضل . انها ثورة عاطفية ينقصها التعقل والاتزان ،
وتعوزها الاحاطة الشاملة بمعنى التطور ، وفهم حقائق الحياة الاجتماعية
والسياسية ، ورواسبها التي لا يمكن ان تبتر بضربة واحدة ، فلا بد لها
من الزمن .

لقد كان الشاعر متقدماً على عصره ، فلم يفهم كلاهما الآخر .

إن قوى الماضي كانت تحتق أنفاس الامة ، وتسعى الى وأد كل حركة
متحررة ، وتعمل على تحقير الشخصية الانسانية بالحجر عليها وعلى

تفكيرها . وكأننا كان يرى - هذا الشاعر الثائر - أن لا سبيل الى طرد
المستعمر وقهر الغاصبين ، إلا بخلق الشخصية القومية العاملة الطامحة ،
التي لا تستريح الى نصيبها من الحياة ، ولا تتعزى عما أصابها من بلاء
بتخدير حواسها بالتعليقات المتخلفة ، ولا تلتمس لعودها وانزاعها تعليلاً
في القضاء والقدر ، صفة العاجزين المتواكلين الذين ينتظرون ان تمطرهم
السما ذهباً .

وفي النعمة على هذه الفلسفة الخائعة المستسلمة التي يغذى بها احساس
الناس ، تنطلق هتافة الشابي متمردة طليقة مؤمنة بالحياة والطموح
ومباشاة الزمان ، كارهة للحياة بين الحفر ، ومتطلعة الى السمو مرفعة
عن الجمود والركود الذي لا يليق بأبناء الحياة المؤمنين بغدوم :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

انها وطنية صادقة لا تخدم أغراضاً طبقية، ولا تسير في ركاب حزب،
ولا توحىها مناسبة هزيلة ضئيلة لا تخرج في سطحياتها وبرودها عن تعليق
الصحف . وطنية متمردة، وطنية الشاعر الذي وعى رسالته، فأحس في
أعماقه أنه مسؤول عن تبصير شعبه بمعاني الحياة الحرة الكريمة ، مسؤولية
الشاعر الذي احترم ذاته وكيانه واستقل بها عن الآخرين، فأحب لشعبه
ان يحقق ذلك في شخصية متميزة تتجه الى المساهمة الحضارية الخالقة .
وهو في ذلك يعانق الروح العالمي ، ولا يرى غضاضة في استلهاهم الفن
والادب الغربي . وربما كان مؤمناً في أعماقه ، بما يؤمن به اكثر شباب

العصر من بطلان تلك الفكرة التي دأب بعض العقول على ترديدها ، عن
مادية الغرب وروحانية الشرق . ان المدنية التي يبلغ فيها الانسان كمال
انسانيته لا يمكن ان يقال انها مادية ، انما المادية في هذه العبادة
للماضي ، والعبودية للواقع ، بما فيه من سيطرة طبيعية واجتماعية .

الطبيعة في شعر الشَّابِي

عندما نتحدث عن الطبيعة عند هذا الشاعر ، يجب ان نميز بين احساسين : بين من يصف الطبيعة لأنه يراها وسيلة من وسائل اللذة والتنعم، وبين من يصف الطبيعة، لأنه يعبدها وينظر اليها نظرة عاطفية رفيعة تنبثق من مشاركته لظواهرها والاندماج في محاسنها . الاول قد يقف عند المشاهد الطبيعية، فيستقصيها ويتبع دقائقها وتخرج من قراءته بلوحات فنية رائعة، ولكن هذه اللوحات على روعتها وجمالها، تقتصر الى احساس الخاشع المتصوف الذي نجده عند الشاعر الذي يصف الطبيعة وصف العابد لروعة معبوده . وفي هذا الاحساس الاخير يقف الشابي قمة شاذة بين الشعراء المعاصرين الذين ظفرت الطبيعة في شعرهم بنصيب كبير.

ان الطبيعة التي يصورها الشابي، ليست متعددة المشاهد ولا متنوعة المناظر ، وشعره خالٍ من « اللوحات » الطبيعية الكاملة ، فلا ترى وصفاً خاصاً بنهر او روض ، او غير ذلك من المجالي الطبيعية الرائعة . ولكننا حين نقرأ شعره ، نحس ان الشاعر يعبد الطبيعة عبادة عميقة تصل به الى درجة الفناء في جمالها الأخاذ ، وندرك ان شعوره بها لم يكن شعوراً بسيطاً، ولكنه كان شعوراً عميقاً لأنه لا يتذوقها في سذاجة المتلذذ المتنعم الذي لا يشغله منها الا ما تهيئه له من راحة وظل وفير .

طبيعة الشابي تسكن استعاراته وتشابيهه ، ولا تقوم وحدها قصائد مستقلة ، معبرة عن روعة هذه المناظر التي يشير اليها اشارة عابرة ، او مصورة لما فيها من سحر وجلال . على ان ذلك لا ينفي ان الشاعر كان عميق الاحساس بها ، حتى ليبعث في حديثه عن الطبيعة دفئا وحنانا لا نعهدهما في غيره من الشعراء المعاصرين . وهو يظهرها امام عينيك في كامل بهائها ، بما تملكه عبارته من قدرة فائقة على الإيحاء .

ان للسما الباسمة ، والكهوف الواجة ، والجدول الجاري ، والأفق الجميل ، والنسيم الرخي ، وشفق السحاب ، وظلمة الليل ، وعصافير الصباح ، والغمام الشرود ، وأعاصير الخريف ، والشتاء العابس ، والحسك الدامي ، والورود الغضة ، ووهج الصيف ، والخريف الحزين ، والربيع الجديد ، وأرج الأزهار ، ونور الضحى ، والمروج الخضراء ... كل هذه ألوان يستعين بها الشابي على ابراز معانيه في قالب من الصور .

وانعدام هذه التفاصيل لا يدل على ضعف في احساسه بالطبيعة ، وانما يدل على انه لا يستطيع تأمل المشهد الطبيعي على انفراد . فهو ، اذا تأمله ، أضفى عليه احساسه وآلامه . وهو في ذلك يسير وفق نزعه « الرومانسية » ، تلك النزعة التي تتجه الى الانصراف الى الطبيعة ، والهيام بها فيها من سحر وغموض ، والركون الى أحضانها التي تهيبء البعد عن الانسان وشروره . وفوضى الحياة المادية وما فيها من رذيلة وفساد .

ان الركون الى الطبيعة مزاج مميز لتلك الشخصيات التي تنجح الى

المثالية ، وبساطة الحياة وطهرها . ولقد بلغ من سيطرة الطبيعة على الشابي، وحبها، أن كانت استعاراته وتشبيهاته أصداء لجمالها، وقصائده حافلة بهذه الأمثلة الرائعة التي تدل على عمق احساسه . وخير مثال على ذلك ، قصيدته « صلوات في هيكल الحب » . فان عذوبة فائتته لا تشبهها إلا عذوبة السماء الضحوك ، والليلة القمراء، والورد ، والصباح الجديد. وهذه التشابيه عبارات موحية تكاد تكون قصائد قائمة بذاتها ، بما توحيه من ظلال ناعمة ينفیؤها القارئ المتذوق . وأدع للقارئ ان يستشعر عمق هذه الكلمات : السماء الضحوك ... الليلة القمراء... الصباح الجديد. ان القراءة الواعية لهذه القصيدة ، ولغيرها من قصائد الشاعر ، تؤكد لنا انه كان يعيش شعره بكامل احساسه ، وانه ، لشدة حبه للطبيعة ، يكاد يذوب في جمالها السرمدي . ويغلب على صاحب هذا المزاج الرومانسي الذي يعبد الطبيعة ، ان يتخذ من مظاهرها وسيلة للتعبير عما في نفسه ، فهي ليست منفصلة عنه وانما نراها خلال آلامه وأفراحه، فاذا طغى الهم على قلبه كان أبرز المظاهر في شعره تلك الشاحبة الحزينة ، واذا أشرقت البهجة في قلبه ، وأطلَّ البشر على آفاق حياته المتجسمة ، فان تصويره للطبيعة يكون حافلا بهذه الصور التي تنسيه آلامه وتعزيه في أحزانه . ولو ذهبنا نتتبع هذه الحياة النفسية في شعر الشاعر لوجدنا الأمثلة العديدة، فهو في ثورته على شعبه ، تلك الثورة التي عبّر عنها احسن تعبير في قصيدته « النبي المجهول » ، لا يجد ما ينقل الى شعبه ثورة نفسه إلا الرياح العاتية، والأعاصير الطاغية، لأنها أقدر على تحطيم جنوعه الخائرة البالية.

وفي قصيدته «إرادة الحياة» يستمد تلك الارادة الخالقة المبدعة من الطبيعة ويستوحىها من حكمتها الخالدة ، فيصورها في صورة من ينفر من الموتى لأنها تحب الحياة وتحب تجددّها . وآية ذلك ، الربيع الذي يقبل بعد تعاقب الفصول ، فيبعثها من خمود ، ويطلقها من قيود ...

وفي قصيدة « الزنبقة الذابلة » ، لا يقف الشاعر حيالها لكي يصفها ، وانما ليلقي عليها تلك الأسئلة التي تعذب نفسه. فلا تصوير لهذه الزنبقة ، وانما هناك أسئلة يلقيها ليتحقق من مدى مشاركتها له في آلامه : لماذا تساورها اللوعة القاسية ؟ أمن صوت اللبيب الذي تفجر في قلبها الغض ؟ أمن الغروب الذي لوّن حياتها بجمرة العدم ؟ فاذا كانت أغاني الظلام قد أضجرت هذه الزنبقة ، فان أغاني الوجوم قد عذبت نفس الشاعر . واذا كانت السماء قد حبست عنها غيثها ، فان اللوعة الحارقة قد لزمت قلبه المسكين. ولئن أجب الدهر نحيب الدجى في مسمعيها ، فقد ألقى في مهجة الشاعر شواظاً من اللهب المشتعل . انها لا تستوقفه إلا لأن قساوة الحياة قد وحدّت بينهما ، فرمتها باللوعة الحارقة التي لا يطيقها قلبها الغض ، وفجّرت في نفسه تلك الكلوم وأسمعته أنين الأمل . ومن هنا ينطلق هاتفاً :

إليّ فقد وحدت بيننا قساوة هذا الزمان الظلوم
فقد فجّرت فيّ هذي الكلوم كما فجرت فيك تلك الكلوم

انه لا ينظر الى الطبيعة الا من خلال عالمه الداخلي ، ذلك العالم الذي كان يموج بالآلم والأسى. فالصحراء ساهمة الجمال لأنه ساهم « جمال الصحراء

الذي يمتد أمامي جمال ساهم محموم ، ولقد يخيل إليّ أحياناً انه يفكر فيما وراء هذا العالم الصاخب الموّار .. في معاني الفناء والموت والظلام ، ولقد يبلغ بي الوهم أحياناً أن أحسبه نفساً شاعرة مسلوّلة ، تناجي في حمى السقام أحلامها الحزينة الصامتة الموشحة بأردية الموت .

انها صورة لنفسه التي كانت تفكر في معاني الفناء والموت والظلام ، لنفسه المسلوّلة التي تناجي أحلامها الموشحة برداء الموت. وليس للصحراء أثر في هذه الصورة .

ان الطبيعة في هذه القصائد غير مقصودة لذاتها ، وانما هي إطار جميل جذاب يحيط بالصورة التي يريد الشاعر تصويرها، ولم تحتل الطبيعة قلب الاطار الا في قصيدة « أغاني الرعاة » .

وهي من أعمق شعر الطبيعة في الادب العربي، تدل على قوة في الخيال وعمق في التجاوب والتعاطف الذي كان يشعر به نحوها . وفيها تتجلى قدرة الشاعر على التشخيص الذي يبتّ في معانيه حرارة الحياة وخفوقها. وهو صفة بارزة في اكثر ما أنشد الشابي من شعر ، وتجنّده في قصيدته « ارادة الحياة » التي تتحول فيها الطبيعة ، بأرضها ورياحها وغايبها وليلها الى شخوص حية يجاذبها الحديث ويسألها عن حقائق الوجود :

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الفصوص المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة

وتهادي النور في تلك الفجاج الدامسة
أقبل الصبح جميلاً يلاً الأفق بهاه
فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحيّ وغنى للحياه
فأيقني يا خرافي واهرعني لي يا شياه
واتبعيني يا شياهي بين أسراب الطيور
واملئي الوادي ثغاءً ومراحاً وجبور
واسمعي همس السواقي وأنشقي عطر الزهور
وانظري الوادي يغشيه الضباب المستنير
واقطفي من كلاء الارض ومرعاها الجديد
واسمعي شبابتي تشدو بمعسول النشيد
نغم يصعد من قلبي كأنفاس الورود
ثم يسمو طائراً كالبلبل الشادي السعيد
واذا جئنا الى الغاب وغطانا الشجر
فاقطفي ما شئت من عشب وزهر وثمر
أرضعته الشمس بالضوء وغداه القمر
وارتوى من قطرات الطلّ في وقت السحر
وامرحي ما شئت في الوديان او فوق التلال
واربضي في ظلّها الوارف إن خفت الكلال
وامضني الأعشاب والأفكار في صمت الظلال

واسمعي الريح تغني في شمابرخ الجبال
 إن في الغاب أزهيراً وأعشاباً عذاب
 ينشد النحل حواليتها أهازيجاً طراب
 لم تدنس عطرها الطاهر أنفاس الذئاب
 لا ولا طاف بها الثعلب في بعض الصحاب
 وشذاً حلواً وسحراً وسلاماً وظلال
 ونسيماً ساحر الخطوة موفور الدلال
 وغصوناً يرقص النور عليها والجمال
 واخضراراً أبدياً ليس تمحوه الليال
 لن تَمَلِّي يا خرافي من حمى الغاب الظليل
 فزمان الغاب طفل لاغب عذب جميل
 وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيل
 يتمشى في ملال فوق هاتيك السهول
 لك في الغابات مرعاي ومسعاي الجميل
 ولي الإنشاد والعزف الى وقت الأصيل
 فاذا طالت ظلال الكلا الغض الضليل
 فهلمِّي نرجع المسعى الى الحمي النبيل

ولا بد ، لفهم الطبيعة في شعر الشابي ، من وقفة قصيرة على الفصل
 الذي عقده في كتابه « الخيال الشعري عند العرب » .

ولقد كانت أغلب الدراسات التي قامت بها نخبة كريمة من الأدباء ناقصة، لأنها لم تلتفت في دراستها الى الآراء التي احتواها هذا الكتاب، وهي وحدها كفيلة بإيضاح الروح الشعرية التي تغلب على شعره. هؤلاء ذهبوا يلتمسون الطبيعة في شعره، ولم يدرسوا الرأي الذي اتخذ منه نبزاً يسير على ضوئه في كل ما أنتج، ولذلك ابتعدت دراستهم عن التركيز الصحيح. ومن الآراء التي نخالفها هذا الذي يرى في شعر الطبيعة ما يتصل بوطنيته برابط وثيق^(١). وأحسب ان شعر الطبيعة عند الشابي لا يدخل الوطنية الا من بابها الضيق، وما أشك في ان شعر الطبيعة ذو صلة بعيدة بالوطنية متى انصرف الى تصوير مشاهد الوطن، وغايته من ذلك تحبيبها الى مواطنيه، ولكن الطبيعة عند الشابي لا تحفل بالمشاهد التونسية، وانما تتغنى بجمال الطبيعة في مظهره العام، ولسنا نعثر في شعره المنشور على أية صورة لموطنه تحمل اللون المحلي... بحيث اذا قرأناها قلت: هذه لوحة تونسية خاصة بتونس لا تتعداها الى غيرها من البلدان.

ونعود الى رأيه الذي أوضحه في كتابه «الخيال الشعري عند العرب»، بعد ان استعرض نشأة شعر الطبيعة في الادب العربي، فنلاحظ انه في هذا الرأي، يذهب مع الرومانسية الى الحد الذي يرى فيه ان الادب العربي كان واقفاً من الطبيعة «وقفة الاخرس الذي لا ينطق»، والاعمى الذي لا يبصر أضواء النهار». ثم يميز في استعراض شعر الطبيعة في جميع

(١) كفاك الشابي — للاستاذ كرو، ص ٨٧.

عصور الادب العربي . فالشعر الجاهلي والأموي كان خالياً او كالحالي من الشعر الذي يتغنى بحاسن الكون ، او يصف الطبيعة في مجاليها الساحرة ومظاهرها الفاتنة .

اما العصر العباسي ، الذي بلغت فيه الحضارة العربية أقصى درجات النضج والاكتمال، فقد أتاح للأدب الاتصال بالشعوب، اتصالاً بث في الحياة، فظفر ادب الطبيعة فيه بمكانة ظاهرة . وللشاعر رأي في هذا الشعر قد يبدو غريباً للوهلة الاولى ، ولكن التعمق في فهم نفسيته والروح التي يصدر عنها ، يظهر لنا مبلغ صواب هذا الرأي ومكانه من الحقيقة . وبجمله : « ان الفن الطبيعي في الادب العباسي أبعد نظراً وأعمق خيالاً وأدق شعوراً منه في الادب الاندلسي، رغماً عن ان الادب الاندلسي أحفل بهذا الفن من الادب العباسي ، ورغماً عن ان البلاد الاندلسية أشد جمالاً وأعظم روعة من البلاد الشرقية » . ويعلل الشاعر هذه الظاهرة « بانغماس الروح الاندلسية في الحضارة انغماساً أصبحت معه الطبيعة في أنظارهم وسيلة خاصة من وسائل اللذة ، لا منبعاً خالداً من منابع الالهام ، ولذلك كان الشعر الاندلسي رقيقاً طلياً ولكنه قليل الحظ من عمق الشعور . الادب الاندلسي ديباجة غضة ناعمة ، وتعايره عذبة ناصعة ، ووصفه دقيق جميل ، ولكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة واحساس عميق » . وهو رأي يتفق مع آراء بعض المستشرقين الذين لاحظوا ان الادب الاندلسي لم يحفل الا بتناظر الربيع .

وتفسير هذه النظرة التي يلقيها الشابي على شعر الطبيعة في الادب

العربي ، يجب ان نلتصقه في نزعتة الرومانسية التي تعبد الطبيعة ، وفي التميز بين احساس من يصف الطبيعة لأنه يراها، وبين من يصف الطبيعة لأنه يعبدها . وقد كان الاندلسيون عشاق لذة ولهو واستمتاع ، ولذلك لم يجد شعراء صدى عميقاً لدى الشابي الذي كان يرى « ان النظرة العربية الى الطبيعة بسيطة إزاء النظرة الغربية، مهما بلغت من العمق والشعور. وشعراء العربية لم يعبروا عن احساسات شعرية عميقة ، لأنهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الخاشع الى الحي الجليل ، وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منق وطرار جميل، وهي لا تزيد عن الاعجاب البسيط. ومثل هذه النظرة الفارغة لا ينتظر منها ان تشرق بالخيال الجميل ، لأن الخيال الشعري منشؤه الاحساس الملتهب والشعور العميق . وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة، الا شعوراً بسيطاً خالياً من يقظة الحس ونشوة الخيال » .

هذه لمحة قصيرة عن الطبيعة في ادب الشابي ، وربما كان من تمام هذه الملحة ان تقدم الى القارئ قصيدة « أمل الشاعر » :

ليت لي ان أعيش في هذه الدنيا بعيداً بوحدي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغابات وبين الصنوبر المياد
ليس لي من شواغل العيش ما يصرف نفسي عن استماع فؤادي
أتغنى مع البلابل في الغاب وأصغي الى خرير الوادي
وأناجي النجوم والفجر والاطيار والنهر والضيء الهادي
عيشة للجمال والفن أبغيها ، بعيداً عن أمتي وبلادي

لا أعني نفسي بأحزان شعبي ، فهو يحيا في ظلمة الآباد
حسب نفسي من الأسى ما لديها من طريف مستحدث وتلاد
وعن الناس ، لا افكر في الناس ، ولا في حديث تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والافك ، ومن ذلك الهراء العادي
أين منه ، خرير تلك الينابيع الجواربي وشدو تلك الشوادي
وحفيف الغصون نَمَقَّها الطل ، وهمس النسيم للأوراد
هذه عيشة تقدَّسها نفسي ، وأدعو لمجدها وأنادي

الحياة في ستر الشاي

هذا شاعر امتاز بوضوح الشخصية وظهورها في شعره ، ومن كمال هذه الشخصية وأبرز مظاهر استقلالها ، ان تكون لها نظرة في الحياة تنسجم مع مقوماتها . وفلسفته ، او نظريته الى الحياة ، لا تستقل عن شخصيته ، بل هي موسومة بطابع لا يمكن ان يكون لغيره . ولقد بلغ من وضوحه وقوته درجة تستطيع ان تتبينه في من أثر فيهم الشابي . وليس أيسر من الاحساس بنغماته خلال عدد كبير من قصائد شعراء الشباب .

شخصية الشابي شخصية عاطفية انفعالية ، ومن هنا تخضع نظراتها في الحياة الى لحظات الانفعال ونوعه . فاذا كان هذا الانفعال باعثاً على الحزن والكآبة ، فان الحياة ظلمة جالكة ؛ واذا كان باعثاً على التمرّد والتجلبد والطموح ، فان الحياة موكب فخم النشيد ، يسير في طريق المجد والعزة والكرامة . وأحسب انه من العسير ان نقسم هذه النظرة الى مراحل ، لأن الشابي كان من الشخصيات القلقة التي لا تستريح الى نظرة معينة الى الحياة ؛ فنظراته موجّهة بلحظات الانفعال ، ولذلك كانت مغايرة للنظرة العقلية الثابتة المفرغة في قواعد او مذاهب .

وحزن الشابي الذي ظهر في قصائده الأول ، واجد تعليله في مرحلة

المراهقة التي تعيش في عالم من الاحلام ، وتتجه الى العكوف على الذات ، والاستجابة الى الخيال ، والآمال العريضة التي لا سبيل الى تحقيقها في دنيا الواقع . والرومانسية - بصفة عامة - فترة من فترات الحياة الانسانية ، وهي أقرب الى ارواح المراهقين ، بما يحيط بها من غموض محب ، وكآبة لذينة وخيال وقاد . وقد استجاب الشاعر لشاعر هذه المرحلة من حياته ، فرأى الحياة معركة طاحنة لا مقام فيها للضعيف . وكانت تلك تعليلاً لتلك الكآبة التي طغت على انتاجه الاول ، فيعبر عنه في قصيدته « ايه الليل » ، التي يذكر في بعض مقاطعها العوامل التي صنعت كآبته وكآبة كل أديب ، وغرست في نفسه الايمان بأن الحياة انشودة الحزن :

كن كما شاءت السماء كثيباً ، أي شيء يسر نفس الاديب ؟
أنفوس تموت شاخصة بالهول ، في ظلمة القنوط العصب ؟
أم قلوب محطمت على ساحل لجّ الأسى ، بموج الخطوب ؟
انما الناس في الحياة طيور ، قد رماها القضا بوادٍ رهيب
يعصف الهول في جوانبه السود ، فيقضي على صدى العندليب

وفي هذه المرحلة من حياته كان مثالاً بأكياً على الحياة التي تنتهي بالموت ، وقد وجد نفسه رازحاً تحت وطأة التفكير في تلك القضية الخالدة التي شغلت المفكرين ، فأرهقت الخيام ، وألقت المعري الى خضم من الشك ؛ فقفز بنفسه الى التساؤل عن جدوى الحياة ونفعها ، ما دام الموت يجتث كل ما بنته وتعبت في إقامته الحضارة الانسانية :

أرى هيكلا الأيام مشيداً ، ولا بد أن يأتي على رأسه الهدم
 فيصبح ما قد شيد الله للورى خراباً ، كان الكل في أمسه وهم
 فقل لي ما جدوى الحياة وكرها وتلك التي تذوي وتلك التي تنمو؟
 وفوج تغذيه الحياة لبانها ، وفوج غدا تحت التراب له ردم ؟
 وعقل من الأضواء في رأس نابغ ، وعقل من الظلماء يحمله قدم ؟
 وأفئدة حسرى تذوب كآبة ، وأفئدة سكرى يرفُّ لها النجم ؟
 لتعس الورى شاء الإله وجودهم ، فكان لهم جهل وكان لهم فهم

ان الألم الذي يقطر في كثير من قصائده الأول ، انما هو نتيجة لخوفه
 من الموت ، فلقد كان يراه شعباً خيفاً لا يبقى على شيء من آمال الانسانية .
 كان يخشاه حين كانت آماله في الحياة عظيمة ، فهو يحاذر ان تصل اليها
 يده القاسية التي تصيب أزهار الربيع بالذبول ، وتجمد تغريد الشحرور ،
 وتغرس في قلب الأم لوعة حارقة :

ما للمنية لا ترقّ على الحياة النائحة
 سيات أفئدة تثنّ او القلوب الصادحة
 يا شعر هل خلق المتنون بلا شعور كالجماد ؟
 لا رعشة تعرو يديه اذا تملّقه الفؤاد

ولكننا نراه ، بعد حين ، مقبلاً على الموت إقبالاً إيجابياً واعياً ،
 راجياً ان يجد في صدره الراحة من هذا العالم المظلم الذي جفّ سحره ،
 وغاضت ينابيع الجمال فيه ، وذبلت أزهاره اليانعة ، فأحسّ الشاعر

بالغربة بعدما نثر على العالم احلامه يسرة ويمنة ، وأخذ يتساءل عن الغاية من وجوده وسعيه في هذه الحياة :

ثم ماذا ، انا صرت في الدنيا بعيداً عن لهوها وغناها
في ظلام الفناء أدفن ايامي ولا استطيع حتى بكائها
وزهور الحياة تهوي بصمت محزن مضجر على قدميّا
جفّاً سحر الحياة يا قلبي الدامي ، فهبّا نجرب الموت هيا

ولقد كان يرى في الموت « ذوباناً في فجر الجمال السرمدى » . وهو في ذلك يشبه الشاعر الايطالي (ليوباردي) ، الذي كان يقول : « شيئان جيلان في هذه الدنيا : الحب والموت » . وكان يعتقد بأن هناك صلة قوية بين الحب والموت : الحب يولد أهبج ما في الحياة الانسانية ، والموت يلغي آلام الانسان في الحياة . انه يجب الموت ويهتف به ، ويتالم لأن الطبيعة لم تُضف عليه صفة رائعة ؛ وقد فعل هو ما لم تفعله الطبيعة ، فصوره في صورة فتاة يستلطف المرء رؤيتها . على ان هذا التعلق بالموت ، الذي نجده في شعر الشابي، او هذه الايجابية، لا تكتفي بتعليل الطاقة الانفعالية المبذولة^(١) ، وانما يختفي وراءها ايمان الشاعر بفكرة المثل الافلاطونية . واني لأستروح نسمات من هذا العالم تهبُّ على هذه المقطوعة، التي يخاطب بها صميم الوجود :

كنت في فجرك المغلف بالسحر فضاء من النشيد الهادي
وسحاباً من الرؤى يتهدى في ضمير الأزال والآباد

(١) الشعر والموت — نازك الملائكة — الآداب البيردية .

وضياء يعانق العالم الرحب ويسري في كل خافٍ وبادٍ
واتقضى الفجر ، فانحدرت من الأفق الى صميم الوادي
ويختم المقطوعة بهذا البيت الذي يرى في الموت تخلصاً من السجن ،
سجن الجسم :

ليتني لم أزل كما كنت ضوءاً شائعاً في الوجود غير سجين
ولإيمانه بهذا العالم هو الذي بذل في نفسه بذور الاحساس بالغربة ،
وبث فيه اليقين بأن فنه لم يخلق للناس :

فافهمي الناس انما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليل غريباً في أهل هذا الوجود
ودعيمهم يحيون في ظلمة الائم ، وعيشي في طهر كالمحمود
وشعوره بالامتياز والتفوق ، من أبرز الاسباب في هذه الكآبة العميقة
التي تعانق روحه . وكان لا يشكو شيئاً كما يشكو احساسه بالغربة ، او
بمعنى آخر ، غربة المعاني التي يؤمن بها وينادي بتحقيقها . وحين أعياه
العثور على القلب الذي يستجيب الى أغاني الحياة ، أخذ يغزّي نفسه :

انت من ريشة الإله ، فلا تلقي بفن السما لجهل العبيد
انت لم تُخلقي ليقربك الناس ، ولكن لتُعبدني من بعيد
وقد أوهمه ذلك ألا مكان للصواب إلا في جانبه ، وانه وحده البصير
بمعاني الحياة ، فانتهى الى كفر بمحاضر الانسانية وماضيها ومستقبلها ،
وإنكار قيمة الحياة والشعور بعبث الوجود :

يا ايها الماضي الذي قد مضى ، وومضة الموت وليل الأبد
يا حاضر الناس الذي لم يزل ، يا ايها الآتي الذي لم يلد
سخافة دنياكم هذه تائهة في ظلمة لا تحد

ولماذا كانت دنيا الناس سخيقة ؟

لأنها كانت خالية من المثل التي يدعو اليها الشاعر ، ويؤمن بقديستها
وجلالها . ولقد كان شاعراً مثالياً يعيش في عالم مغلف بالآمال والاحلام ،
ويقوم في خياله مدينة شاعرية فاضلة . والمثالية شيء رائع ، وأروع ما فيها
ايمانها بالمثل الخالد : الحق والخير والجمال ، ولكن الدعوة اليها لا يقدر
عليها الا من أوتي صبر الأنبياء . ولقد عبدَ الشاي هذه القيم عبادة عميقة ،
وأسبغ عليها من السحر ما جعلها كل شيء في حياته وفنه ، واتخذها محرراً
يتبجح فيه ، حتى اذا وجد العالم غير مؤمن - في رأيه - بهذه المثل الروحية
الخالدة ، كانت الصدمة عنيفة على روحه الشاعرة ، وكان اثرها شديداً على
عبقريته ، فانطوى على نفسه ، لأن الحياة قد حجبت عنه وجه الحق :

كلما أسأل الحياة عن الحق ، تكف الحياة عن كل همس
لم أجد في الحياة نغماً بديعاً يستبيني سوى سكينته نفسي

انه حائر ،

انه حائر بين ايمان يدعو الى التفوق والسمو والارتقاء ، وبين مجتمع
يشده الى المفاهيم العتيقة البالية .

حائر بين ارادة هائلة بالمثل الأعلى ، وبين قدرة ضعيفة تقعد عن

النهوض لتحقيق هذا المثل . انه محتاج في تحقيقه ، الى الاستجابة والمساندة والفهم الصحيح ، وتلك امور لم تتوافر له في واقع الحياة . ومن هنا كان الوجود ، في رأيه ، شقاء سرمدياً وعناء خالداً ، وكانت الحياة مملة رتيبة يتمنى لو لم تكتحل عيناه بنورها ، لأنها في رتابتها وسآمتها ، تقتل أثنى ما في الانسان ، وهي الروح التي لا يذكىها شيء كما يذكىها الطموح الى التجربة ، تجربة الحياة كوسيلة للتفوق والنبوغ والابداع ، والتطلع الى الاختبارات والسير في موكب التطور الخالق :

يا صميم الحياة ، كم انا في الدنيا غريب أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي
في وجود مكبّل بقيود ، تائه في ظلام شكٍّ ونحس
فاحتضني وضمني لك بالماضي ، فهذا الوجود علة ياسي

ولم تكن رومانسية الشابي مغلقة في نطاق ذاته وفي عالمه الداخلي ،
ولكنها كانت رومانسية متفتحة على مشاكل قومه وقضايا الوجود الانساني ،
تلك القضايا التي كان يعيشها باحساس الفنان الذي يرى نفسه مسؤولاً عن
الحياة الانسانية ، فاذا سئل عن سر كآبته أجاب :

بل هو الفن واكتئابه ، والفنان جم احزانه وهمومه
ابداً يحمل الوجود بما فيه ، كان ليس للوجود زعيمه

وتتبّع الظواهر التي تعيش في (قلب الشاعر) ، يؤكد ان الشاعر
كان ينفعل بجميع مظاهر الحياة التي ترحف على قلبه ، ويحيى متاجع

متأجج الاحساس يحفل بالعظيم والحقير ، بما فيه من صور الحياة الوداعة والغاضبة النائرة ، وصور الانسانية الخيرة والشريرة . ان هذا القلب يحتضن العالم بجميع صوره المتنافضة ولا يضيق بها ، ولكن هذه المظاهر ، التي تزيد في امتداد شخصيته وتعمل على تعميقها وتمنحها خصباً ، انها تزيد من تعاسته وكآبته وتقمته على الناس الذين لا يستشعرون ما فيها من جليل المعاني ، ولا يهتزون لها ولا يفيضون عليها من عواطفهم مثلما يفعل الشاعر الذي كان يعيش الحياة بشعوره ، ويهيب بكل انسان ان يحياها بهذه الطريقة :

عش بالشعور وللشعور فانما دنياك كون عواطف وشعور
شيدت على العطف العميق وانها لتجف لو شيدت على التفكير

ومن هنا كان قلبه الموجّه لهذه الفلسفة ، وما اكثر ما يناجي الشاعر قلبه ، وما اكثر ما يتحدث عنه في شعره مستعرضاً العوالم التي تحيا فيه . فلقد كان « أنقى من الموج المضيء ومن نشيد العندليب » ، شديد التألم لمظاهر الحياة التي لا ترضيه . وكان يدرك ان علته انها جاءت من يقظة احساسه ، ذلك المبدأ الذي نادى به ، ورأى فيه وسيلة للتفوق وادراك معاني الحياة النبيلة :

والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقة نفسي

وفلسفة الشاعر في جميع صورها الباكية والباسمة ، يجب ان تُردّ الى رقة احساسه ، فهو ما شقي في الحياة الا برقة احساسه ويقظة عواطفه ،

تلك البقطة التي كانت تبالغ في عبادة القيم الجمالية ، وتجعله « مضطلعاً بأحزان الشبيبة والمشيبة » .

يقظة الاحساس هي التي خلقت لنا منه ذلك الشاعر الطموح ، الذي يعيش لآمال المستقبل وأحلامه ، ويرسل صرخات مدوية داعية الى السير في موكب الحياة المتطورة . ويقظة الاحساس هي التي خلقت لنا منه هذه الشخصية الممتازة المتفردة بخصائصها التي تكره الذوبان ، فيما كان يفرضه المجتمع من تقاليد جائرة ظالمة تقتل الشخصية الانسانية ، وتقضي على خير ما فيها حين تشدّها الى ظلمات العصور الغابرة . وطموحه وذاتيته المستقلة من أقوى العوامل الفعّالة في خلق هذه الكأبة التي صبغت شعره . على ان الشابي ظلّ عميق الحب للحياة ، وليس تشاؤمه إلا صورة من صور النقمة على الأوضاع المريضة التي كان مجتمعه يعيش فيها . وهو ينطوي على الرغبة في الحياة الرفيعة الخالقة المبدعة ، اكثر مما ينطوي على كراهية الحياة . ولعل قصائده الأخيرة خير معبر عن هذه الروح التي تهيم بالحياة وتتعلق بها كما تريدها ، لا كما يريدتها المجتمع المتأخر . ولذا كانت دعواته متجهة الى متابعة الزمن والتخلي عن الخوف والحذر :

فمن لا يحب صعود الجبال
يعش أبداً الدهر بين الحفر

والشابي الذي كان صادقاً في التعبير عن شخصيته ، لم يشأ ان يخدع الناس عن الحقيقة الانسانية الكبرى الكامنة في التعلق بالحياة والقيام بها ، مهما كانت محفوفة بالخراب والآلام والاحزان ، فهي ابدأ محبوبة لدى الانسان وليس التشاؤم الا ضرباً من الهذيان . وما اكثر الكارهين للحياة

وما اكثر الناقين ، ولكنهم يحملون في أعماقهم حبها والتشبث بأيامها .
ولقد كان الشاعر الايطالي (ليوباردي) يتغنى بالموت في شعره وكتاباتة ،
ولكنه لم يجد في نفسه القوة على مواجهة هذا الموت الذي أحبه ، حين
أخذ يحصد الارواح في (كوليرا) نابولي ، وكان مقيماً بها ، ففرَّ الى
الأقاليم ؛ فكان فراره اعظم دليل على عبودية الانسان للحياة :

واذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضربٌ من الهذيان والبهتان
ان ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الايمان

ومجمل الرأي ، ان الكتابة التي تطفئ على شعر الشابي ، انها صنعها
عصره بما كان يشيع بين شبابه من ألوان الحزن، وصنعها مزاجه الموروث
وبيئته التي كانت ترسف في تقاليد الاجيال الغابرة ، وقراءاته الرومانسية
ومرضه العضال .

أسلوب الشَّانِي

كثيراً ما وقفت حائراً أمام هذه الروعة التي تبدو في أسلوب الشاعري ،
وكثيراً ما تساءلت عن سر هذه القوة التي تسري في ألفاظه ومعانيه فتمتلك
النفس الشاعرة ، فإذا هي مأخوذة بهذا السحر ، مأسورة بذلك الجمال .
أناقة التعبير ورصانته وأصالته ، هي الدعائم الأولى التي يقوم عليها
أسلوب الشاعري ، الذي امتاز ببعده عن النثرية السطحية التي أخذت على
كثير من شعراء المدرسة الحديثة ، وخاصة شعراء المدرسة المهجرية . فهو
أسلوب ينساب في عفوية وبساطة رصينة ، بساطة من أدرك موضع اللفظ ،
ومدى قوته التصويرية والموسيقية . حتى إذا استولت عليه شهوة النظم ،
تدفقت شاعريته في سماحة ويسر لا يشعران القارئ بأي مجهود إلا بقدر
ما يشعر كالنهر المتدفق نحو البحار بقوة النبع الذي يصدر عنه . وتلك
صفة لا ينالها إلا من عاش معنى اللفظ ، وأحس بما فيه من رصيد شعوري
لا يقوم على الرنين اللفظي الذي يأسر الأذان ، ولكنه يقوم على الباطنة
المتقدمة التي تنفذ إلى أعماق الوجدان .

والوضوح هو الدعامة الأولى للبساطة ، ولذا أجدني مخالفاً لمن يهتمون
هذا الشاعر بالغموض وتعتمد التعابير الرمزية . وإن شعره لمن الوضوح
بحيث لا يحتاج إلى شرح أو إعانة التريجة في فك تعابيره . ومثل هذه

المحاولة خليقة بأن تؤدي الى افساد الأجواء النفسية التي تحيط بالفاظه ،
لأنها ألفاظ عادية مألوفة تكن قوتها في هذا الجو الشعري الذي يوشحها
بالسحر .

قوة اسلوب الشابي ليست في ألفاظه ، رغم براعته في استخدامها
ورغم ثروته من الألفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام
النابغ والموسيقي العبقرى ، ولكنها في قوة احساسه . انه اسلوب تحسُّه
قبل ان تفهمه ، لأن الروح التي تسري فيه تأخذ عليك طريقك وتحاصرک
فلا تعرف تحديد موضع القوة فيه . وقوة الاحساس هي كل شيء في فنه
وشاعريته . هي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة في مواضع
السخط والتمرد ، وهي التي تندفق بالألفاظ اللينة الوديدة في مواضع اللين
والضراعة . وقد وجَّهته هذه القوة توجيهاً خطايا ، فلم يستطع ان
يتخلص من تلك الصفة التي أخذها على الشعر العربي ، ولم يقدر على
التحرر منها . وأمثلة ذلك واضحة في كثير من شعره ، الذي يشعرك بأنه
واقف بين قومه يلقنهم تعاليمه او يصب عليهم غضبه ونقمته :

ليها الشعب ليتني كنت خطاباً فاهوي على الجذوع بفاسي
اذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ساعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة السماء
اين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ اين الطموح والاحلام ؟

وهي ظاهرة تصاحب أوزانه التي تلائم لحظة الانفعال ، وتنسجم
مع نوع التجربة الشعورية . والشابي موفق كل التوفيق في اختيار الاوزان

التي تلائم عواطفه وتسبغ على تعايره جواً من الموسيقى العميقة . فهو
نغم هامس حزين في « الصباح الجديد » ، نائر صارخ متمرد في « النبي
المجهول » و « ارادة الحياة » و « انشودة الجبار » ، وهو نغم وديع هامس
في « صلوات في هيكل الحب » .

فقد كان الشابي عميق الفهم لهذا اللون من الأداء الفني الذي يقوم عليه
كل اسلوب رفيع ، فيقول في تحديده : « هو هذا الاسلوب الذي يكون
عنيفاً كالعاصفة ، حيناً يمثل سخط الحياة وثوران العواطف ، ويكون
وادعاً كضوء القمر حيناً يمثل طمأنينة الحياة وسكينة النفس ، ويكون
رقيقاً شجياً كأنات ناي بعيد ، حيناً يمثل أحلام الحياة ونجوى القلوب
المتحابة ، ويكون كثيباً مظلماً كقلب الظلام ، حيناً يمثل نؤس الحياة
وأحزان البشر » .

الشابي شاعر فنان .

وفي هذه الصفة تميز له عن غيره من الشعراء الذين يعيشون الحياة
بجاسة واحدة . اما هو فقد كان يعيشها بجميع حواسه ، وتلك صفة لا
تتأتى الا لمن كان في مثل حساسيته المرهفة وعاطفته وسعة آفاقه . وصفة
الفن بارزة في اغلب ما تناوله هذا الشاعر ، فقد كان يستخدم في شعره
مرقم الموسيقى ، وريشة الرسام ، وتعبير الشاعر الفحل . ولا يعسر على
المرء ان يستخرج من هذا الشعر الرائع صوراً فنية فاتنة ، عمل الخيال في
تلوينها وأبدعتها عبقرية تستقبل الحياة بأكثر من حاسة . وتستطيع ان

تحس بذلك في استعاراته وتشابيهه التي تعرض على القارئ ، في جملة قصيرة ، لوحة باذخة تنسجم فيها الأضواء والظلال .

ومن ذلك هذه الصورة التي يرسمها لمعبد الحب :

وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
معبدًا للجمال والحب مشيداً على فجج الجسرين
تحت يزر الزمان ويجري صامتاً في مصبه المحزون ...
وتمرُّ الآلام والحزن والموت ... بعيداً عن ظله الميمون
معبدًا ساحراً يتوجّه الزهر على الصخر والثرى والغصون
كل زهر يوضع منه أريج من بخور الربيع جم القتون
ونجوم السماء فيه شموع أوقدتها للحب روح القرون
وهذه الرؤيا التي تطالعه في عيني حبيبته :

زمر من ملائكة العالم الأعلى يغنون في حنو حنون
وصبايا رواقص يتراشقن بزهر التفاح والياسمين
في فضاء منور حالم سام أطفأت به عذارى القرون

وتلحق بهذه صور أخرى تضاهيها في الروعة والجمال ، وتعيد إلى ذهنك لوحات المبدعين من الرسامين في عصر النهضة ، بما فيها من وجوه ملائكية وديعة :

لا الحب يرقص فوقها متغنياً للناس بين جداول وزهور
متورد الوجنات سكران الخطا يهتر من مرج وفرط جبور

متكللاً بالورد ينثر للورى أغصان ورد اللذة المنظور
كلا ولا الفن الجميل بظاهر للناس تحت غمامة من نور
متوشحاً بالسحر ينفخ نايه المشبوب بين خمائل وغدير
او يلمس العود المقدس واضعاً للموت ، للاحلام ، للديجور
ما في الحياة من السرّة والأسى ، والسحر والذات والتغدير

وهو يستعين في ذلك بقدرة خارقة على الإيحاء والتأثير على القارىء،
بحيث يضع امام بصره في تعبير بسيط ، صورة لا نهاية لروعيتها. واسلوبه
تصويري تتعانق فيه الصور وتتلاحق في موكب فخم ، وهو مسرف في
نثر هذه الصور ، ولكنه الاسراف الذي يدل على الوفرة والغنى ولا يدل
على الجهد والعناء . فانظر كيف تتلاحق هذه الصور الرائعة في تشبيه
ايام الطفولة :

ايام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النмир

والتجسيم او التشخيص احدى الملكات التي يتمتع بها الشابي ،
وتساعده على ابراز معانيه والتعبير عما في نفسه . ويتجلى ذلك في احساسه
بالطبيعة ، ذلك الاحساس الذي يجعل منه شخصاً يشاركه ويادله الشعور
بافراح الحياة وآلامها . ففي أغنية « الرعاة » يدث في الطبيعة حياة ، فاذا
الصبح يقبل ، والنور يتهادى ، والربى تحلم ، والصبايا ترقص ، والزهور
والطيور والامواج تتمطى ، والنسيم ساحر الخطو وموفور الدلال ،

والريح تغني ، والشمس ترضع بالضوء ، والقمر يغذي . ومبعث هذا التشخيص خيال مجنح وشعور يقظ ، يخلعات على المناظر والأحياء ثوب الحياة .

انه شاعر كان يعيش حياته باحساس الفنان، وإكثاره من الإشارة الى الموسيقى يدل على مدى تعلقه بهذا اللون من الفن الجميل ، حتى ليرتفع في تجسيد فانتته الى عالم من النغم فيراها قطعة من فنون السماء :

فتمايلت في الحياة كلحن عبقري الخيال حلو النشيد
وتهادت في أفق نفسك أوزان الحياة ورقة التغريد
وقوام يكاد ينطق بالألحان في وقفة وقعود
خطوات سكرانة بالأناشيد وصوت كرجع ناي بعيد
كل شيء موقع فيك ، حتى لفظة الجيد واهتزاز النهود

ونحب ان نؤكد ان الحكم على اسلوبه ، انما أقناه على اساس من تجاربه الشعرية الاخيرة الناضجة ، التي تحدت فيها شخصيته ومعالم اسلوبه وطريقته في الأداء ، ودلت على الطريق الذي سيسلكه لو قد رعبقريته ان تنمو وتعيش . ومن الواضح انه لا يسري على تلك القصائد الأولى التي نظمها في مرحلة التكوين والمحاولة ، وإن أخذ الشابي باخطاء هذه الفترة ينطوي على تحامل وإسراف في الظلم . ولا بد من التذكير بأن العمر الشعري لهذا الشاعر لم يتجاوز سنوات قليلة ، وذلك هو مظهر القوة والأصالة فيه ، فهو رغم عمره القصير ، استطاع ان يكون مدرسة وحده ، وان يدمغ كثيراً من الشعراء بطابعه الواضح القوي العميق .

المِـرَاةُ فِي سَمِ الشَّامِ

من النماذج النسائية التي تستأثر بإعجابي ، هذا النموذج الذي أبدعته عبقرية الشاعر الخالد « هوميروس » في ملحمة المشهورة « الاودسة » . نموذج المرأة الوفية ، وتمثل أبداع معانيه في « بنلوب » .. الزوجة الحسنة التي ترمي المقادير بزوجها في أماكن نائية ، فتقطع أخباره عنها ، ولكنها تقيم على وفائها له سنوات عديدة ، ولا تتحول عن حبها رغم اغراء العشاق الذين تراحموا على قصرها ، رجاء الفوز بيدها ، بعد ان علموا بغيبية زوجها البطل ، وأمنوا بطشه . فلما ركبها الضجر من ملاحقتهم لها ، لم تبخل عليهم بالوعود والأمانى ، فأحيت نفوسهم بخدعة بارعة أنقذتها من شرهم ، اذ اتخذت لنفسها منسجاً ، وأوهمتهم انها متى أتمت نسج كفن لوالدها فهي لا بد متزوجة بواحد منهم . وبدأت تنسج وتنقض في الليل ما نسجته في النهار ، ولكن سرها يفتضح ، وتجد نفسها مرة اخرى امام إلحاحهم ، فتسعى الى وضع حد لهذا العبث الماكن بأن تعرض عليهم قوس زوجها وسهامه ، فن استطاع ان يثنيها فيرسل منها سهماً يخترق حواجز حديدية معينة ، فهو صاحبها . فلم يستطع احد ان يفعل ذلك ، وهنا يعود زوجها اودسيوس ، فيثني القوس ويرمي السهم ، ويفتك بتلك العصبه من العشاق ، ثم يلقي بنفسه في أحضان زوجته

الوفية، التي صانت عهده وبقيت على طهرها وعفتها هذه السنين الطويلة، ليس لها من أنيس إلا هذا الايمان العميق الذي يغمر جوانحها بعودته القريبة .

هذا نموذج للمرأة الوفية في الشعر القديم ، حاولت ان أجعله مثيلاً في شعرنا القديم ، فما استطعت ، ذلك لأن الشعر العربي القديم لم يكن يحفل بمثل هذا النموذج ؛ فقد غاب نموذج الزوجة الوفية، ونموذج الاخت الحنون والأم الرؤوم في زحمة نماذج المرأة المعشوقة ، التي كانت كل شيء في الشعر العربي القديم . ولقد بلغ من أهميته وسيطرته على النفوس ، أن أصبحت القصائد لا تعذب في السمع ، ولا يحسن وقعها في القلب ، ولا تجد طريقها الى الروح الا اذا كانت مفتوحة بالنسيب ... وانه لمن المحزن حقاً ، ألا نجد في الشعر القديم ما يرفع من قيمة المرأة، ويعبر عن الجوانب السامية فيها .. فلننا نعر فيه على نموذج كهذا النموذج الذي أبدعه دانتي في بياتريس ، تلك الفتاة الوديدة التي أصبحت في شعره مثلاً للفضائل الانسانية حين أضفى عليها خياله ، مما جعله يردد قول هوميروس : « انها لا تبدو ابنة بشر ولكنها ابنة إله » ... « وانها ما جاءت الى هذا العالم الا لكي تشيع الطهارة فيه ، وما غادرته الا لأن السماء في حاجة اليها ، وان المدينة قد تيتمت بعد موتها » .

ان هذه المآخذ التي تسجل على الشعر القديم ، لا تغطي على تلك الأمثلة الرائعة التي تشرق في تاريخنا ... فان في هذا التاريخ الخالد أمثلة عظيمة للمرأة في أرفع مواقفها الانسانية ، ولكن الشعر لم يظن الى هذه

الناذج. ومن ذلك هذا المثل الذي يقف في عزة وشمم فيغطي على «بنلوب»، لأن جنوره تضرب في الواقع الصحيح ... فافهموا هذا ، يا من تسيئون الظن بالمرأة ، ولا تذكرون لها الا الجوانب السيئة . وافهموا هذا ، يا من ترددون في غفلة : ان المرأة شر .. وهل المرأة شر ؟ اما انا ، فلا أجدني مؤمناً بهذا القول ، لأنني اذا أقررتة فلا يبعدني عن الشر ، بل يضعني في صميمه ، لأن المرأة امي ، والمرأة اختي ، والمرأة ابنتي .. وما معنى هذا ؟ معناه انني ابن الشر ، وشقيق الشر ، وقرين الشر ، ومنجب الشر ..

ثم اقرأوا معي في إجلال ، هذا النموذج الرائع الذي غفل عنه الشعر ولم يغفل عنه التاريخ .. انها نائلة ، زوجة عثمان رضي الله عنه ، تكاثرت عليها خطاياها ، بعد مقتل زوجها ، فأبتهم جميعاً . ولما خطبها معاوية ابن ابي سفيان قالت : وما أعجب امير المؤمنين مني ؟ قيل لها : حسن ثغرك - وكانت احسن النساء ثغراً - فدقت ثناياها وقالت : أذات ثغر تراني بعد عثمان ؟ ...

وهذا مثال آخر يحدثنا به الاصمعي ، نذكره مع شيء من التحفظ والاحتياط. وهو مثال اذا فاته جمال الحقيقة، فلن يفوته جمال الاسطورة المعبرة عن أشواق النفس الانسانية في أروع صورها :

قال : رأيت بالبادية اعرايية لا تتكلم ، فقلت : أخرساء هي ؟ فقيل لي : لا ، ولكن كان زوجها معجباً بنغمتها ، فلما توفي أطبقت فها فلا تتكلم بعده ابداً^(١) .

(١) المرأة العربية — لمبداه عفيفي .

هذه النماذج لم يقف الشعر العربي عندها. واني لأبحث في شوق زائد، عن نموذج يمثل الأم في حنوها وعطفها ، او يصورها وهي تحتضن رضيعها ، فلا أجد . حتى نموذج المرأة العشيقة ليست له سمة خاصة ، او ظاهرة مميزة ، فكلهن في ميزان الشعراء خصر نحيل ، وخذ أسيل ، وردف ثقيل ، وغير ذلك من المحاسن الجسدية : اما المعاني السامية في المرأة ، امسا عواطفها وأحاسيسها ، فذلك امر لا نعرف له بداية الا في شعرنا المعاصر ، هذا الشعر الذي لم يعد يستكثر على المرأة الديوان الكامل ، ينظمه في تمجيدها والسمو بها عن تلك النظرة السيئة ، نظرة العصور القديمة اليها .

لقد كان المجتمع العربي في تلك العصور ، يستمد قيمه الاخلاقية من منطق القوة . ومن هنا كانت مكانة الضعيف فيه ، مكانة مهينة مزرية ، بالغة حدها من الانحطاط والضعف. والمرأة في ضعفها ، لم تستطع ان تكون قوة فعالة في الدفاع عن القبيلة ، فانزلها ضعفها منزلة المتاع ، فتعرضت للسبي ، واصبحت تغتم وتباع كأنها ثروة مادية . ولقد جنت عليها هذه النظرة ، جنائية تسلسل أثرها مع التاريخ . وعلى الرغم من الحقوق التي منحها الاسلام للمرأة ، فقد بقي العرف ينظر اليها نظرة القوي الى الضعيف . وزاد من ضآلة قدرها وهوانها على الناس ، ما كان من شيوع التسري ، الرقيق .

وربما كانت نظرة الشعر العربي في عصوره الاولى ، نظرة أدنى الى القصد والاعتدال ، لأن النظرة العربية كانت بريئة وشريفة ، وخاصة

عندما شاع هذا الغزل العذري في الحجاز ، وتلك نعمة جديدة كان للدين الجديد أقوى الأثر في إيقاظها ورفعها عن شوائب الجسد ، ولكن هذه النعمة الرقيقة لا تلبث ان تضع في فساد العصور التالية، التي جعلت من المرأة لذة رخيصة فحسب . فحجبتها عن الحياة ، وحرمت المجتمع اجل مباحجه وأعظم قواه الدافعة. وكان من نتيجة هذا البعد الذي فرض عليها أن لازمها نظرة سيئة ، ولاحقها لعنة ابدية ، تسهم في براءتها ونزاهتها وتجردها من كل عاطفة كريمة ، فأصبحت مثالا للغدر، والدس ، والخسة، والندالة، والكيد ، ولم يبق لنا في الشعر الا نموذج المرأة الهلوك ، والمرأة العشيقة. وكتاب «ألف ليلة وليلة» أبلغ شاهد على نظرة العصور المتأخرة الى المرأة .

وقد ظلت مكانة المرأة على هذه المهانة والمخطاات المنزلة ، تحوطها العماية ويغلفها الجهل، حتى كانت بداية هذا القرن ، حين استيقظ الشرق على صوت الخطر الزاحف ، المتمثل في الاستعمار الغربي ، الذي دفع المصلحين الى البحث عن اسباب الواقع الفاسد المرير الذي يعيشون فيه ، فكان من أبرز الاسباب وأظهرها .. مكانة المرأة .

ومن هنا تضافرت الجهود ، لتصحيح هذه المكانة وردّها الى الوضع السليم ، ذلك الوضع الذي يقضي به منطق الكرامة والتقدم ؛ فكانت في مصر دعوة قاسم أمين ، التي زلزلت كيان الرجعيين وشملت في امتدادها الشرق كله . كانت دعوة تهدف الى تحرير المرأة من الجهل ومن الحجاب، وكان سلاحها أن لا سبيل الى رقي الشرق الا برقي نساءه . فالمرأة في

جهلها ، لا تستطيع ان تنشئ جيلاً متعلماً ، يفهم حقيقة الحياة ويقدر قيمة التضحية . وهل تنتظر من ناشئ ، جهلت امه معنى الامة ، ومعنى العزة القومية ، ومعنى الكرامة الوطنية ، ان يشبَّ هو على الايمان بها ؟ . وقد سائر الشعب العربي المعاصر هذه الدعوة ، فكان متحفظاً في مصر ، وكان متحرراً مندفعاً في العراق . كان متحفظاً عند شوقي وحافظ ، وكان متحرراً عنيفاً عند الرصافي والزاوي . وبين التحفظ والتحرر كانت موكب التقدم يزحف على أنقاض الجمود ، وسيظل في زحفه حتى تبلغ المرأة ما يراد لها من تقدم وتطور .

ظفرت المرأة بعناية الشعر المعاصر الذي شارك في الدعوة الى تعليمها وتحريرها ، فكان شوقي يردد :

واذا النساء نشأنَ في أمّيةٍ رضع الرجال جهالة وخمولا
وكان حافظ يهتف بهذا البيت الخالد :

الأمُّ مدرسة اذا أعددتها أعددت شعباً طيب الاعراق
وكان مطران يرسل هذه الحكمة :

إن لم تكن أمٌ ، فلا أمة وانما بالأمهات الأمم
اما في العراق ، فقد كانت الرصافي ثورة جارفة ، وتمرداً عاصفاً ،
دعوة لا تعرف اللين او الهوادة :

لئن وأدوا البنات فقد قبرنا جميع نساتنا قبل المات
حجبناهن عن طلب المعالي فعشنَ 'بجهلن' مهتكات

وقالوا ان معنى العلم شيء تضيق به صدور الغايات
وقالوا شرعة الاسلام تقضي بتفضيل الذين على اللواتي
لقد كذبوا على الاسلام كذباً تزول الشمس منه مزلزلات

ومن الظواهر التي يقلّ الجدل فيها، ان واقع المرأة العربية في بداية
هذا القرن، كان واقعاً متشابهاً في جميع أقطار الشرق، وانما كان التفاوت
بعد ذلك نتيجة لما أصابه كل شعب من التقدم والرقى . وهذه حقيقة نمهد
بها للحديث عن المرأة في تونس . فقد كان حالها كحال شقيقاتها في جميع
الأقطار العربية ، كانت بعيدة عن العلم ، بعيدة عن الحياة . وكان لا بد
للمصلحين ان يلتفتوا الى هذه الناحية البارزة من حياة امّتهم ، فتوالت
صرخاتهم وصيحاتهم داعية الى النهوض بالمرأة . وقد تمثلت هذه الدعوة
على أتمها ، في رائد بارز من رواد النهضة التونسية الحديثة . . هو الطاهر
الحداد صاحب كتاب « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » . وقد تألب عليه
أنصار التخلف ، كما تألبوا على غيره من اعلام الإصلاح ، ولكن دعوته
ما تزال حية في القلوب ، وما تزال قوة دافعة في حياة مجتمعه الجديد .

هذه هي مكانة المرأة في عصر الشبابي ، وتلك نظرة المجتمعات
العربية ... فما مكانها من شعره وحياته ؟

هذه الكلمة محاولة لتحديد مكانة المرأة في حياة الشبابي وشعره . هي
محاولة ، لأن حياة الشبابي ما تزال غامضة مجهولة لا نعلم من تفاصيلها الا
اشياء باهتة قد لا تفيد الدارس كثيراً ، والجهل بهذه الحياة الخصبه الواهبة
نتيجة من نتائج الجحود الذي لا يتفرد به الشبابي ، ولكنه نكبة الناهين

والنابغين في الشرق، حتى ليعسر معه ان نعرف دخائل نفوسهم، وندرك الادوار التي مرّت بها حيائهم، منذ نشأتهم حتى بداية التفتح فاكتمال النمو وتألّق النبوغ. وتلك جنّاية من جنّيات التحفظ الزائف والوقار المصطنع والتقاليد البغيضة، التي تابى على العبقرى ان يعيش حياة انسانية كريمة، ثم تابى على محبّيه ومقدّرّي نبوغه، ان يعرفوا هذه الحياة البائسة في تفاصيلها، بعد ان يغيبه القبر.

وجهلنا بتفاصيل حياة الشابي، وخاصة ما يتصل منها بالمرأة، يبعدنا عن الخوض في هذا الموضوع الذي لا نستطيع ان نبنيه على اساس من الواقع الصحيح. وغاية ما نقدر عليه ان نقيمه على الظن والتخمين، وما كان الظن وسيلة من الوسائل الناجحة في البحث. على ان هناك حقيقة واضحة، هي ان الشابي عرف المرأة، فقد تزوج وأنجب اطفالاً. ولكن الغموض يحيط بالطريقة التي تمّ بها هذا الزواج، هل كان استجابة لرغبة خاصة أم اذعاناً لرغبة اسرته؟؟ ولا أستبعد ان يكون زواجه غير مفروض عليه، لما نعلمه فيه من ثورة على التقاليد ونقمة على مظاهر الحياة القديمة. ومن العسير ان يؤمن الانسان بإذعان الشابي للارغام، لأنّه بذلك يكون قد تنكّر لاسمى المبادئ التي عاش من أجلها، الا اذا ارتضينا التفسير القائل بإقدام الشاعر على تجربة الموت^(١).

هذه ناحية يحيط بها الغموض.

على ان الشابي - رغم زواجه - ظلّ يتشوق في شعره الى المثال

(١) حصاد القلم - لأبي القاسم كرو (١١٧).

الذي يرضي طموحه ، ويشبع روحه . والشعر الذي قاله في المرأة ، لا نستطيع ان نعر فيه على امرأة معينة ، لها شخصيتها وطبائعها ومزاياها التي تتفرد بها . أقول هذا وأنا على بيّنة من المذهب الذي اتبعه الشابي في شعره ، فقد أخذ على الشعراء القدامى سعيهم وراء الجسد ، واهمالهم الصفات التي تميّز امرأة عن اخرى. ولو كانت هناك امرأة معينة تختفي وراء هذا القصيد ، لما صحّ ان تترك شعره دون ان تسمه بميمس خاص ، يستطيع معه القارئ التعرف الى شخصيتها بوضوح .

وثمة حقيقة يخطئ فيها كثير من الباحثين ، هي عدم تمييزهم بين النعمة التي تصدر عن الحرمان ، فلا تصوّر الا اللهفة والحنين والشوق ، وتسبغ على المحبوب كل صفات الرقة والجمال ، وبين النعمة التي تصدر عن الحب ، حب الذي عرف المرأة وعاشرها ففهمها وفهم طبائعها ، فلم يزد في التشبيب بها على وصفها بصفاتها المميزة لها .

شعر الشابي صادر عن نفس محرومة ، فلا يتنفس فيه الا الشوق والحنين الى تلك التي تنقذه من جهامة ايامه ورباطتها المملة. ولذلك أجديني مع القائلين بأنه كان يتغنى بالمرأة كمثل اعلى ، لا امرأة معينة . وقصيدته الرائعة « صلوات في هيكल الحب » ، لا تصوّر امرأة قدر ما تصور نفسه ونزوعه الى الحب البريء الطاهر ، الذي يرفع المرأة عن النظرة القديمة التي يراها الشابي « دنيئة سافلة ، منحطّة الى اقصى قرار من المادة ، لا تفهم من المرأة الا انها جسد يُشتهى ، ومتعة من متع العيش الدنيء . اما تلك النظرة السامية ، التي يزدوج فيها الحب بالاجلال ، والشغف بالعبادة .

اما تلك النظرة الروحية العميقة ، التي نجدها عند الشعراء الاوروبيين ، فانها منعقدة كلياً او شبه منعقدة في الادب العربي كله ، لا استثنى الا الأندلس الأقل ، على الرغم من ان اكثره في المرأة... لم يعرف العرب ، ولا الشاعر العربي ، تلك النظرة الفنية التي تعدّ المرأة قطعة فنية من فنون السماء يلتبس منها الوحي والالهام . ولم يحاول الشاعر العربي ان يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة ، نحمل بين جنبيها سعادة الحب ، ومعنى الأمومة ، وهما أقدس ما في الوجود . ولا بذلك القلب الذي يزخر بأسمى عواطف الحياة وأروع أشعارها ، وأجمل اجلام هذا العالم الكبير . ولا شعر بما بين هاته الطبيعة الكبرى وبين المرأة من اتصال وثيق ، حتى كان قلبها الانساني الذي يحمل بسمه الفجر ويأس الظلام ، ذلك شأو لم تحلّق فيه أجنحة الشعر العربي ولا نالته ، بل لم يفتح اليه بصره الذي ألف مغاوره المظلمة وكهوفه الضيقة ، بل ان الشاعر العربي لم يرفع بصره الى ما هو أدنى من ذلك بكثير ، فهو اذا تحدث عن جمال المرأة لم يتحدث عنه كفنٍّ مستقلٍّ مجرد من هاته الظاهرة المادية التي تتصل بالخصر والردف ونحوها ، وانما تحدث عن الجمال المتهدّل ، الذي يوزن بالرطل والقنطار من الشحم واللحم ، كأنها الجمال جسد يحس ومادة تمس ...

وما دام الغموض يحيط بالمرأة في واقع حياته ، فلم يبق لنا الا ان نلتبسها في شعره . قبل ذلك يجب ان نعرف ان شخصية الشابي كانت شخصية رومانسية ، نزّاعة الى المثالية في كل شيء ، مؤمنة بالعاطفة ،

مستخفة بالعقل . ومن هنا كان حبه للمرأة ونظرته اليها من ذلك النوع الذي تحتلظ فيه العفة بالتصوّف ، فاذا المرأة في منزلة العبادة .

ومصدر هذه النظرة عند الشابي ، حرمان فرضته البيئة والتقاليد ، التي حالت دونه ودون الانطلاق والتحرر ، فكان من ذلك هذا النغم الحزين ، وهذه الضراعة للحبيبة حتى ترحم الشباب الداوي ، والقلب المتهدم ، والشاعر الذي يسلك طريق الحياة كالشارد الهيمان ، والبيئة التي ينطلق فيها صوت المصلح الاجتماعي مردداً هذه الكلمات العظيمة : « اذا كنا نحتقر المرأة ، ولا نعبأ بما هي فيه من هوان وسقوط ، فانما ذلك صورة من احتقارنا لأنفسنا ، ورضائنا بما نحن فيه من هوان وسقوط . واذا كنا نجبها ونحترمها ونسعى لتكامل ذاتها ، فليس ذلك الا صورة من حبنا واحترامنا لأنفسنا ، وسعينا في تكامل ذاتنا »^(١) . مثل هذه الصيحة لا بد ان يدعمها الفن ، ولا بد ان تجد التعبير عنها في قصائد الشعراء الملمهين . فكانت صلاة الشابي في هيكل الحب ، وهي أرفع صلاة تُوجّه الى امرأة في أدبنا العربي ، قديمه وحديثه ، لما تحفل به من ومضات انسانية رائعة ، وسموّ في النفس ، وارتفاع عن شوائب الجسد . ولا شك في ان هذا التمجيد الذي نالته المرأة في شعر الشابي ، ليس سوى ردّ فعل على مجتمع لا يرى فيها ما يراه هو ببداهة الشاعر الفنان ، من المعاني السامية ، فاراد ان يكشف لهذا المجتمع عما في قلب هذه المخلوقة الضعيفة من عواطف رقيقة ، ومعاني نبيلة ، وقوة دافعة ملهمة .

(١) امرأتنا في الشريعة والمجتمع — الطاهر الحداد .

وكان في تساميه ، مستجيباً الى النزعة الرومانسية التي كانت مشغولة بالقضايا الانسانية الكبرى ، منصرفة الى الحقائق والقيم الاخلاقية العليا ، عازفة عن التوافه العارضة الزائلة لإيمانها بأنه :

غير باق في الكون الا جبال الروح غصاً على الزمان الأبد

وذلك هو « الجمال المنشود » الذي كان يبحث عنه الشابى . انه لا يتم بالغدائر المسترسلة ، والحدود الموردة ، والشفاه الباسمة ، والعيون الحاملة ، والنهود المهتزة ، وكل صور الفتنة النسائية ، الا بمقدار ما تشف عن طهارة الروح ، ونقاء القلب ؛ فليس تعلقه بها قائماً على المحاسن الجسدية ، ولم يكن مشغولاً بما ينطوي عليه كيائها اللاfach من حرارة ، ولكنه كان منصرفاً الى ما في جوانحها من معاني الأمومة والعطف والمحبة ، تلك المعاني التي افتقدتها في واقع الحياة . انه يعيشها ويعشق فيها هذه المعاني التي ضاعت منه في معركة الحياة القاسية ، وهي وحدها قادرة على ان تردّها اليه ، وتعيد الى نفسه طمأنينتها وتسبغ عليه أمنها وسلامها ، فما هبطت الى هذه الارض الا لكي تحيي هذه المعاني في النفوس ، وهو لا يطلب منها وصلاً كهذا الذي اعتدنا سماعه من كثير من الشعراء ، ولكنه يرجو ان تمنحه الأمن والراحة والعطف الروحي ، وان يعيش في ظلها :

عيشة للجمال والفن والالهام والطهر والسنى والسجود
عيشة الناسك البتول يناجي الرب في نشوة الذهول الشديد

ليس أيسر من الشعور بالجمال المائل في المظاهر الجسدية ، انه جمال لا يعسر ادراكه او الاحساس به حتى على أولئك الموغلين في الجهالة

والبلادة والغلظة - فذلك نداء الغريزة لا تخطيء في الاستجابة اليه. وليس أشق ولا أصعب من الاحساس بالمعاني الجميلة الساحرة التي قد تشفّ عنها المرأة ، تلك صفة تحتاج الى عمق في النفس ، ونفاذ في البصيرة ، ورقة في الشعور . وفهم لحقائق الحياة الانسانية وجوهرها . ومثل هذه الحقائق نجدها بارزة في رائعته « صلوات في هيكل الحب » . انها قصيدة خالدة تبلغ حدّاً من الابداع تطغى معه على جميع ما قيل في تمجيد المرأة في الشعر العربي ، اذ تمتاز بهذا التسامي والتصوف ، ولا تعباً الا بالمعاني الروحية التي توحىها المرأة. ومبعث الحرارة التي تسري في هذه القصيدة فشل الشاعر في تحقيق مثال المرأة الذي يريده في واقع الحياة . فلا مناص له من ان يعيش في خياله مع المرأة التي أقامها إلهة، يرتل في هيكلها المقدس تسابيح وصلواته الحارة ، صلوات فيها الضراعة والبكاء والحسرة على المجتمع الكافر بالقيم الرفيعة، العابد للرواسب البالية التي تنحدر الشخصية الانسانية . انه ينشد المثال الذي لم يوفره له المجتمع . وهذه القاتنة تحتل من قلب الشاعر المكان الذي احتلته بياتريس من قلب دانتي الذي يقول فيه الكاتب الايطالي المعروف « بايني » : « ان حاجة دانتي الى عبادة مخلوق كامل ، ناجمة عن روحه الحساسة ، فلقد كان عصره حافلاً بصور الشر، كما كانت مدينته غارقة في ألوان من الحروب المبيدة ، فكان يلتبس لنفسه مهرباً من هذا العالم الفاسد الغارق في الرذيلة ، فلم يجد الا هذا النموذج الذي أبدعه خياله، وأفاض عليه من صور الجمال كل رائع فتان ، نموذج ملائكي يوحى بالركة والانعطاف ، ويسمو على القبح والابتذال

بمنحه العطف في عالم محفوف بالخراب ، ويسبغ عليه الرحمة في دنيا كلها
 حقد ولؤم . ولا يعسر على الباحث ان يستخرج مثل هذه الحقائق من
 قصيدة الشابي .

سجل الشابي، بهذه القصيدة، اتجاهاً جديداً في الادب العربي، وخرج
 عن مألوف الشعر الذي كان يهتم بالحاسن الجسدية . ويلاحظ هنا ان شعراء
 العصر الحديث ، من الذين ناصرُوا قضية المرأة ، كشوقي وحافظ وغيرهم ،
 لم يتحولوا عن الطريقة القديمة في افتتاح القصيدة بالنسيب، كما ظلَّ غزله
 مشدوداً الى الشعر القديم بأوصافه وتعايره، حتى لكانهم لم يحسوا بالعصر
 الذي يعيشون فيه .

ومن مصادر نظرة الشابي الى المرأة ، القراءات التي أدمن عليها ،
 وأغلبها من ذلك النوع الذي يرضي نزعة العاطفية، انه انتاج رومانسي.
 فكان جبران يغذي خياله « بسلمى » بطلة « الأجنحة المتكسرة »، وجيته
 « بشارلوت » بطلة « آلام فرتر »، ولامارتين «يجوليا » بطلة « رفائيل ».
 وأثر لامارتين في قصيدة الشابي أثر واضح لا شك فيه، وهو بارز في كثير
 من المعاني والتعابير ، وفي الموقف الذي يتخذه من الحبيبة .

وعند جبران يجب ان تقف طويلاً ، فلا شك في ان الشابي قد تأثر
 بنظرته الى المرأة ، وتأثيره سابق على كل تأثير . وكل تأثير جاء بعده ، لم
 تكن له وظيفة سوى تقوية أثر جبران ودعمه .

ونظرة جبران الى المرأة ، نظرة رفيعة فيها صوفية ، وفيها رقة ،
 وفيها حنان . فيها هذا الشعور الذي يكون عند المسيحي ، الذي يختلط

حب المرأة في نفسه بعبادة « العذراء » . ولقد كان الشابي يعجب اعجاباً عظيماً بهذه المناجاة ، التي يهمس بها جبران في الأجنحة المتكسرة . وقد اتخذ منها دليلاً على خلوّ الادب العربي القديم من الصور المشرّفة للمرأة... انها مناجاة للام : « ان أعذب ما تحدّثه الشفاء البشرية هو لفظة (الأم) . وأجل مناداة هي (يا أمي) : كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف ، وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة . الام هي كل شيء في هذه الحياة . هي التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف . هي ينبوع الحنوّ والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد أمه ، يفقد صدرأ يسند اليه رأسه ، ويدأ تباركه وعيناً تحرسه . ان كلمة الام تختبئ في قلوبنا كما تختبئ النواة في قلب الارض ، وتنبثق من بين شفافها ، في ساعات الحزن والفرح ، كما يتصاعد العطر من قلب الورد في الفضاء الصافي » .

وكان يعجب بهذه القطعة التي تشيد بوفاء المرأة وثباتها على العهد : « ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحوّل مع الفصول . قلب المرأة ينازع طويلاً ، ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الانسان ساحة لحروبه ومذابحه . وهو يقتلع أشجارها ، ويحرق أعشابها ، ويلطخ صخورها بالدماء ، ويفرش تربتها بالعظام والجهاجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ، ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور » .

وتصور الشابي للمرأة يردّها الى لوحات عصر النهضة ، بما فيها من

رقة في القسمات ، ووداعة في الملامح التي تشفّ عن الطهارة والبراءة .
ونموذج المرأة الذي تعلّق به ، هو هذا الذي نجده عند أدباء النزعة
الرومانطيقية : طهر وعفة ، وجمال ورقة سماوية ، وُبعد عن شوائب
الجسد ، وسموٌ عظيم حتى عن الوصف والتحديد :

انت انت الحياة في قدسها السامي وفي سحرها الشجيّ الفريد
انت انت الحياة في رقة الفجر وفي رونق الربيع الوليد
انت انت الحياة كل أوائ ، في رواء من الشباب جديد
انت دنيا من الأناشيد والأحلام والسحر والخيال المريد
انت فوق الخيال والشعر والفن والنهى وفوق الحدود
انت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي

المسرة في أدب جبران

أثر المرأة في حياة النابيين النابغين حقيقة ثابتة لا مجال للجدال فيها ،
وتلك الحياة المنتجة الخصبة التي عاشها أولئك العباقرة، الذين كانوا شموعاً
مضيئة في طريق الانسانية، انما كانت مستمدة في أغلب أحوالها، من ذلك
النبع الفياض بالحب والعطف والحنان الذي كانت المرأة تغمر به عواطفهم.
والمرأة كانت - دائماً - طيفاً ساحراً جميلاً ، اذا خلت منه حياة الفنان
الشاعر ، فانها تغدو في اتصال فراغها كالصحراء القاحلة ، تموت الاحلام
على رملها ، ويهيمن شبح اليأس على جوانبها . واذا قيل فتش عن المرأة
خلف كل إجرام ، كان من الحق والانصاف ان يقال : فتش عن المرأة
وراء كل نظام . ولا خلاف في الصورة التي يتجلى فيها النظام ، فقد
يكون مقطوعة موسيقية تعبّر عن آلام النفس الانسانية او آمالها ، وقد
يكون قصيدة شاعر تصوّر لهفة العاطفة ونوازع القلب البشري ، وقد
يكون لوحة رسام تمثل مشهداً من مشاهد الطبيعة وروائع الوجود، وما
اكثر ما في الحياة من مشاهد جميلة لا تبصرها إلا عين فنان تنفذ الى
الأعماق .

اذا كانت هذه هي مكانة المرأة في الادب والفن ، فان مكانتها في حياة
جبران مكانة عظيمة بارزة ، لأنه أديب وفنان استيقظ احساسه بالحياة

على هدهدة حنانها ، وأبصر طريقه في الوجود على نور رعايتها ، وصعد قمة المجد مدفوعاً بالقوة التي أمدته بها ، وخاطب العالم من خلال الوحي والالهام الذي زخرت به دربه ؛ فأى عجب بعد ذلك في ان يعترف لها في خشوع : « انا مدين بكل ما هو (انا) الى المرأة ، منذ كنت طفلاً حتى الساعة ، والمرأة تفتتح النوافذ في بصري والابواب في روحي . ولولا المرأة الام ، والمرأة الشقيقة ، والمرأة الصديقة ، لبقيت هاجعاً مع هؤلاء النائمين الذين يفسدون سكينة العالم بغطيطهم » .

ومن خلال هذه الكلمة الرائعة التي تعترف بفضل المرأة ، وترد اليها الأثر الكبير في نباهة الذكر ، وعلو المنزلة ، يجب ان نطل على موقف جبران من المرأة . ذلك الموقف الذي لا يتضح لنا في جلاله وعظمته ، الا اذا أوضحنا حالة المرأة في بداية هذا العصر ، وهي حالة ما تزال سائدة في كثير من البلدان العربية ، كما ان رواستها ما تزال تلعب دوراً كبيراً حتى في المجتمعات التي ظفرت فيها المرأة بنصيب من الكرامة واحترام الشخصية .

في مثل هذه الحالة انبثقت عبقرية جبران ، تلك العبقرية الفعالة التي ظهرت على جمود الشرق وخموده ظهور الشمس على الظلمة الخالكة . وليس من المبالغة ولا الاسراف في تعظيم جبران ، ان يقال انه من الرواد المجددين في ميدان الفكر العربي الحديث ، فملك حقيقة لا يجادل فيها منصف يعترف بالحق لأهله . انه طليعة أدباء المهجر ، وما أظن القارئ في حاجة الى من يذكره بمآثر الادب المهجري وأثره في النهضة الادبية

المعاصرة ، ذلك التأثير الذي صرخ معنى الادب وأبعده عن الجو الراكد الذي كان يعيش فيه امتداداً لعصور الانحطاط والجمود ، فقد انتشله من هذه الهاوية بأن أرشده الى المعاني الجديدة وزاد من اتصاله بالحياة ، فكان معبراً عن الشعور الصادق ، ومصوراً للعواطف الانسانية الخالدة في مختلف جوانبها كما كان عاملاً من عوامل اليقظة والبعث ، والدعوة الى النهضة الشاملة .

وكل دعوة الى نهضة لابد ان تتجه الى التعرف بالعوائق التي تقف في طريق الموكب الصاعد. وليفتش المفكر، وليدقق الباحث ، وليتحدث المصلح .. فما من تصحيح لوضع الامة العربية في الوجود ، إلا بتصحيح مكانة المرأة فيها ، اذا أردناها ان تكون أمّاً صالحة ، وخالقة أجيال ، ومربية شعوب . ولك ان تتبين ذلك من هذه الصرخة التي رسلها جبران على الجامدين : « ان المرأة المظلومة رمز الامة المظلومة » ، « ان المرأة من الامة بمنزلة الشعاع من السراج ، وهل يكون الشعاع ضئيلاً إلا اذا كانت زيته شحيحاً ؟ » . ومثل هذا الرأي يحمل في أعطافه التصحيح الذي يهب المرأة مكانتها الاجتماعية ، ويرد اليها كرامتها السليب وانسانيتها الضائعة في غمار العبودية ، ويضعها في مكانها من الوجود ، حيث لا ينظر اليها على انها وسيلة من وسائل اللذة الرخيصة والمتعة الدنيئة ، يسعى الرجل الى كيانها اللافح ، غير حافل بما تحمل بين جوانبها من معاني الرحمة والعطف والأمومة والحنان

انه التصحيح الذي يجعل منها خالقة شعوب، ومبدعة أمم، ومرضة
لمعاني المجد والسمو وعبادة الوطن .

ان النظرة المادية لعنة أبدية ، لاحقت المرأة من عصور الانحطاط ،
وتسربت الى الكيان العربي من أجناس غريبة عنه . وأنا من المؤمنين في
اصرار، بأن النظرة المادية الفاسدة الى المرأة التي ظهرت في العصر العباسي،
لم تكن وليدة الكيان العربي الاجتماعي ، وانما كانت وافدة مع الحضارات
الجديدة . اننا اذا بحثنا في الادب الجاهلي والأموي ، لن نعث فيه على مثل
هذه الصور المهينة التي شاعت في العصر العباسي ، وظلت سلسلة ممتدة
حتى بداية هذا العصر ، وبداية الیقظة التي أخذت تلتفت حولها لتنظر
مكانها من الوجود، وتبحث عن حقيقة هذا الكيان الخائر المظلم، فكانت
ثورة على جهل المرأة، وكانت ثورة على عبوديتها، وكانت ثورة على التقاليد
التي لا تقيم وزناً للعواطف الانسانية . ولم تقف الثورة عند هذا ، فان
جبران ، الذي كان رائداً من رواد الحركة الفكرية ، قد ذهب في ادبه
مذهباً جديداً ، وأخذ يسكب في الشرق من ذوب قلبه ، نفحات رائعة ،
تسمو بالمرأة وترفعها الى مرتبة سامية تقرب من مرتبة التقديس . وموقفه
منها موقف المتصوّف المتعبد المتبتل ، الذي ينسى ذاته في نشوة العبادة
والاستغراق في الحب . وجدير بالذكر هنا ان الادب العربي الحديث ، على
الرغم من مشاركته في الدعوة الى احترام المرأة ، ما يزال يعاني أثراً من
رواسب عتيقة . ورغم هذه الصور المشرقة ، التي تطل علينا من خلال
قصيدة رائعة او قصة ممتازة او مقالة ملتبية ، فان صورة المرأة ما تزال

نهب الاجحاف وفريسة الغبن . وعلى كثرة ما نقرأ من غزل عفيف .
متصوف ، يسكب الشاعر فيه عواطفه ، ويستترل عبقريته من سماواتها
الرفيعة ليضعها على أقدام محبوبته ، فانسا ، مع ذلك ، لا نعثر على صورة
للمرأة وهي بعيدة عن المجال الغريزي . أين صورة المرأة الام ؟ أين صورة
المرأة الاخوت ؟ وما أسمى معاني الأخوة والأمومة وما أكثرها لمن أراد ان
يحيط بها .

ونغضي نفثش في يأس ، على مناجاة للآم ، وتصوير لعواطفها وتقديس
لآلامها ، فلا نعثر إلا على هذه الزهرات النادرة التي توشي دروبنا القاحلة .
انها مناجاة للآم يهمس بها جبران :

« ان أعذب ما تحدثه الشفاء البشرية هو لفظة (الأم) . وأجمل
مناداة هي (يا أمي) : كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف ،
وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة . الام هي كل شيء
في هذه الحياة . هي التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في
الضعف . هي ينبوع الخنوت والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد أمه ،
يفقد صدرأ يسند اليه رأسه ، ويدأ تباركه وعيناً تحرسه .

كل شيء في الطبيعة يرمز الى الأمومة ، فالشمس هي أم الارض ،
ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ، ولا تغادرها عند المساء إلا بعد ان
تنيمها على نغمة امواج البحر وترنيمه العصافير والسواقي . وهذه الارض
هي أم الاشجار والازهار ، تلدها وترضعها ثم تقطعها . والاشجار والازهار
تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشبيهة والبذور الحية . وأم كل شيء

في الكيثن هي الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة . أن
لفظة الام تختبئ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة في قلب الارز ، وتنبثق
من بين شفاها في ساعات الحزن والفرح ، كما يتصاعد العطر من قلب
الوردة في الفضاء الصافي المطر .

ولا بد من تفسير لهذا التنكر للمرأة ، عندما تكون بعيدة عن المجال
الغريزي . والتفسير الذي أراه ، أن أمهات بعض المبدعين لسن من قوة
الشخصية والتأثير في حياة أبنائهن ، بالملكة التي تقف فيها أم جبران .
فلا شك في أن جبران كان يصدر في هذه المناجاة عن حب عميق لأمه ،
وتلك صفة شهد بها أصدقاؤه ومؤرخو حياته ، فقد كان يحبها حتى
العبادة ، واليها يرد أخلاقه وميوله . ويقف دونها بعد ذلك في الصفات
الآخرى ، فيقول في رسالة إلى الآسمة مي : «أما أنا ، فقد ورثت عن أمي تسعين
بالمائة من أخلاقي وميولي ، ولا أعني بذلك أنني أشبهها بالحلاوة والوداعة
والقلب الكبير » . لقد نسج من كلمات هذه الام الخنون « أجنته
المتكسرة » ، وسكب من عواطفها وصورتها الوديعه تلك المناجاة
الرفيعة . وإلى هذه الام وحنانها يجب أن نرد كل أسباب السمو للمرأة في
ادب جبران .

وجبران لا يقف عند المظاهر المادية للمرأة أو الجمال الجسدي ، وإنما
يمضي إلى الأعماق ، إلى خلجات النفوس واهتزازات العواطف . وما من
شك أن تقديسه للمرأة وسموه بها يملكان في أعطافه روحاً مسيحية .
وكثيراً ما يختلط حب المرأة في عاطفة المسيحي بعبادة « العذراء » ،

ومثل ذلك واضح في « بياتريس » ملهمة دانتي ، و « لورا » حبيبة
بترارك .

وليس من العسير ان نعثر على نموذج المرأة كما يريد لها ، والمرأة كما هي
مكانتها من المجتمع الشرقي . على اني احب ان أثبت حقيقة واضحة ، هي
ان الروح كانت تشغل جبران اكثر من انشغاله بالجسد ، ولنا ان نتبين
ذلك من عرضه الزواج على « ماري هاسكل » ، ولم يكن لها من الأنوثة ما
يرغب الرجل في الاقتران بها ، هذا الى انها كانت تكبره سناً . كما
عرض الزواج على « مي » ولم يتعرف بها عن كثب ، وانما أحب روحها
التي كانت تأتي اليه هائمة مع البريد ، وهذا حب لا يقال في صاحبه أنه
مادي لا يتعلق بالمرأة إلا اذا تمثلت لعينيه في صورة مثالية جميلة . ولكن
« سلمى » نموذج ممتاز للمرأة ، التي تجمع الى جمال الجسد ، جلال الروح ،
وتقاوة السريرة ، وعفة النفس . حتى ليعسر عليه ، وهو الشاعر الفنان ،
ان يصور جمالها :

« ان المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس ، مشفوعاً بجمال الجسد ،
هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها
بالكلام ، تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس » .

قصة الأجنحة المتكسرة ، قصة المرأة الشرقية المظلومة ، التي تضعها
تقاليد المجتمع الفاسدة في بيت زوج ، لم تضمها اليه عاطفة الحب ولم
يجمعها التفاهم الروحي ، وانما تنقل من بيت أبيها الى بيت زوجها كأنها
قطعة من الأثاث او نفيس الرياش ، ولا رأي لها في هذا المستقبل او المصير

الذي تقدم عليه . ومتى كان للضعيف ارادة امام القوي ؟! هذه « سلمى » فتاة روحية الاميال والعواطف والمذاهب ، في روحها عذوبة ، وفي نفسها كآبة . وهبتها السماء نعمة الجمال الجسدي مشفوعاً بالجمال الروحي ، وكانت في سمو أخلاقها ورفعة تربيتها ، تدعن لإرادة والدها الواهنة ، تلك الارادة التي حبكت قضبان سجنها ، عندما ألقت بها في أحضان راهب (تسير قبائحه في ظل الانجيل فتبدو للناس كالفنائيل) ، فزوّجها من ابن أخيه كي يضم ثروة ابيه ، ثم أهملها وذهب يلتمس اللذة الدنيئة عند غيرها ، حتى اذا أنجبت مات الوليد الصغير ، ثم لحقت به تاركة له وللمطران ذلك الثراء الذي تزوّجها من أجله .

ورأي جبران في الزواج غير واضح ، فهو كافر به عازف عنه عندما كان خاضعاً لتأثير « نيتشه » ، حتى ليراه « عبودية الانسان لقوة الاستمرار » ، ولكننا نستطيع ان نفهم من آثاره الأدبية ، انه كان يحقد على الطريقة التي كان يتم بها الزواج في الشرق ، تلك الطريقة التي تجعل المرأة بضاعة رخيصة لا وزن لها ولا قيمة لعواطفها ، وهي ممثلة على أوضح صورها في « وردة الهاني » ، احدى نماذج - الارواح المتمردة - الثائرة على شريعة الناس وتقاليدهم التي نجعلها « رفيقة مضجع بحكم العادات والتقاليد ، قبل ان تصيرها السماء قرينة للرجل بشريعة الروح والعواطف » .

وقصة هذه المظلومة قصة الرجل الذي يضم اليه امرأة لم يستمل عواطفها بالحب ، فتستيقظ بعد حين ، منتبهة الى الواقع المرير الذي يشدها الى رجل لا يرضي عواطفها ، ولا يحقق احلامها او يغمرها بذلك الحب

الصافي والحنان الجارف ، فلا عجب اذا انقلبت روحها متمردة صارخة :
 « ان سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ولا بكرمه وحلمه ، بل
 بالحب الذي يضم روحها الى روحه ، ويسكب عواطفها في كبده ويجعلها
 عضواً واحداً في جسم الحياة » .

ويذهب جبران في مناصرة أمثال هذه المرأة الى الحد الذي يعتنق فيه
 منطقاً بعيداً عن السداد ، وقد انتصر لهذه المرأة التي تركت بيت زوجها ،
 عندما انسكب على ظلمة قلبها شعاع رقيق من عيني شاب فقير ، يقطع
 طريق الحياة وحده ، فكانت له الرفيقة التي تهجر بيت الزوج ، وتستغف
 بالشرائع وتقاليد الناس من أجله ، لأنها تكره ان تعيش مرآئية مداجية ،
 كما تكره ان تخضع لغير قلبها الذي يأبى الاذعان للمظاهر الاجتماعية ،
 وتأبى ان تكون نموذجاً من تلك النماذج الكثيرة . التي تدافع بوجود
 أزواجها عن منكراتها ومفاسدها .

ومصدر المفاسد الاجتماعية وتلك الخيانات والمنكرات ، التي تستعرضها
 بطلة القصة ، انها يرجع ، في أغلبه ، الى ان الناس يذعنون للتقاليد اكثر
 من إذعانهم لشرعية القلب ، ولو استجابوا الى دعوة العواطف الانسانية
 لاستطاعوا ان يبعدوا شبح الفساد عن حياتهم . ذلك لأن « المحبة هي
 الحرية الوحيدة في هذا العالم ، لأنها ترفع النفس الى مقام سام لا تبلغه
 شرائع البشر وتقاليدهم ، ولا تسود عليه نواميس الطبيعة وأحكامها » .

ومنتطق العاطفة الذي غلب على جبران ، في انتصاره « لسلمى »
 و « زردة » ، وتبريره لموقفها وتأييده لاجتماعها بمن أحبها من الرجال ،

هذا المنطق لا يجد قبولا عند الكثير . ولا يصح ان يغفل في هذا المجال رأي الأنسة 'مي' ، فهي كمرأة أولى بان تشعر بالمشكلة في صميمها . اتنا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران . انا أحترم أفكارك ، وأجل مبادئك ، لأنني أعرفك صادقا في تعزيزها ، مخلصا في الدفاع عنها ، وكلها ترمي الى مقاصد شريفة . وأشارك ايضا في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة . فالمرأة كالرجل يجب ان تكون مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشباب ، تابعة في ذلك ميولها وإلهاماتها الشخصية ، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف . حتى اذا ما انتخبت شريكا لها ، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيدا تاما : انت تسمي هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الاجيال ، وأنا أقول انها سلاسل ثقيلة . نعم ، ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي . فإن توصل الفكر الى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد ، فلن يتوصل الى كسر القيود الطبيعية ، لأن أحكام الطبيعة فوق كل شيء . ثم لماذا لا تستطيع المرأة الاجتماع بحبيها على غير علم من زوجها ؟ لأنها باجتماعها السري هذا ، مهما كان طاهرا ، تخون زوجها وتخون الاسم الذي قبلته بلاء ارادتها ، وتخون الهيئة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها .

هذا استعراض لرأي جبران في المرأة ، قصدت من وراءه البحث الادبي الخالص ، والدراسة التي تحدد مكان المرأة من أدب هذا الأديب الكبير . وربما كان من تمام هذه الدراسة التي طالت ، ان نختتمها بهذه القطعة الرقيقة التي تشيد بوفاء المرأة وثباتها على العهد : ' ان قلب المرأة لا يتغير

مع الزمن ولا مع الفصول . قلب المرأة ينازع طويلاً ، ولكنه لا يموت .
تلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الانسان ساحة لحروبه ومذابحه : فهو
بقتل أشجارها ، ويحرق أعشابها ، ويلطخ صخورها بالدماء ، ويفرش
نربتها بالعظام والجماجم .. ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ، ويظل
فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور .

الطفولة في سمر الشابي

في صباح مشرق من أيام الربيع ، جلس الشاعر الايطالي ليوباردي ، في ظل قصره الشامخ يتأهب للقراءة ، ولكن تغريد الطيور ملك عليه قلبه وعقله ؛ فانصرف عن الكتاب الذي كان بين يديه ، الى التفكير في هذا التغريد العذب الجميل ، ما سره ؟؟ فلم يدر إلا ويده تمتد الى القلم ، لتسجل على القرطاس هذه الخطرات :

« ان الطيور أسعد المخلوقات بطبعها ، تشعر بالمرح والخفة والطمأنينة اكثر من أي مخلوق آخر . وان أغلب الحيوانات ليدو عليها الحزن والكآبة ، كان الحياة لديها ظلمة حالكة . فهي لا تظهر أية علامة من علامات الانشراح والمرح ، ولا تهزها المروج الخضراء ولا الاشراق الذي يغمر الكون في ايام الربيع ، ولا جوّه الطلق المنعش ، الذي يسري في الأوصال فيبعث خامدها ، وفي النفوس فيحيي ميتها . ولكن الطيور في مظهرها وحركتها ، تنعم بالاطمئنان ، وليس من سر لهذه الطمانينة الا ذلك السر الذي يكن في تركيبها الجسماني ، فقد خلقت مؤهلة لأن تنعم بالانشراح والانطلاق . انها تغرد كلما شعرت بسرور غامر ، وهي تغني في اكثر الاوقات . ويدل ذلك على ان مزاجها مستجيب للمرح ، وانها مستمتعة بحياتها . ويزداد تغريدها في الايام الصاحية الجميلة ، ويقل في الايام الحالكة

المظلمة. وهي تستقبل العاصفة بالصمت، ولكنها تشيعها بالتغريد والمغازلة والقفز. وهي تغني في الصباح، كأنها تشعر بمثل ما يشعر به الناس من بهجة اليوم الجديد. تأخذها البهجة والانشراح من منظر المروج الخضراء والوديان الخصبة، والمياه الصافية، والجداول الرقراقة والقرى الجميلة، حتى يتمكن القول، ان ما يشعر به الانسان من جمال وسحر في الطبيعة، تشعر به هي الاخرى. وهي لا تستقر في مكان، فما تكاد تقع على غصن حتى تغادره الى آخر. وما تكاد تنهبط الى الارض، حتى تعود فتحلّق في الفضاء الواسع. انها لا تعرف الركود والاستقرار. انها حركة متصلة. وهي في ذلك تشبه الاطفال، تشبههم في حركتهم وفي رشاقتهن، وربما تشبههم ايضا في أفراسهم: فكلاهما لا يحمل مأخذاً خارجياً، وكلاهما مشغول بنفسه عن أحداث العالم. وغير غريب ان يخلص الشاعر بعد ذلك، الى ان الحياة حركة، وان الطيور ما حفلت حياتها بالبهجة والمسرّة إلا للطبيعة تركيبها. وتنقلها من مكان الى آخر في سرعة عجيبة، هذا التنقل الذي أبعداها عن السآمة والملل والحياة الرتيبة، وساعداها على المشاهدة ورياضة الجسم. وكما غنى الشاعر الاغريقي القديم، ان يتحوّل الى مرآة مصقولة تطيل حبيبته التأمل فيها، او الى طيب يغمرها بجو من العطر، او الى ماء تستحم فيه وتسيل قطراته على جسمها الساحر الفتان، او الى غلالة تضم صدرها الناهد وتحنو عليه، او الى لؤلؤة تتالق في جيدها الأتلع، او الى حذاء تدوسه بقدميها الرشيقتين..

فان ليوباردي لا يتمنى الا ان يتحول ، لبرهة قصيرة ، الى عصفور ، حتى
يجرب سعادة الطيور وطمانيتها .

طافت بذهني هذه الأمنية التي تصدر عن شاعر محروم ، حين هممت
بالتحدث عن الطفولة في شعر الشابي . ولست أدري ما الذي أوحى إليّ
بهذه الصلة بين الطفولة ومرحها ، والطيور وانطلاقها ؛ ولكنني أدري أن
الشاعرين البائسين لم يقفا عند هذين الموضوعين ، الا ليعكسا شيئاً من
فلسفتها . عاش ليوباردي محروماً من كل شيء ، حتى من عطف الام
وحنانها ، مقيداً بأغلال الأسرة التي كانت تشفق عليه ، من مغادرة بلدته
الصغيرة التي لا ترضي طموحه ولا تلائم نزوعه الى الحركة والتجربة .
انه يريد الانطلاق . يريد الآفاق الرحبة . يريد ان يجرب الحياة . يريد
ان يغرد على كل فنن ... وهكذا وجد التعبير عن حياته الراكدة ،
بتصويره لحياة الطيور .

اما الشابي ، شاعرنا الخالد العظيم ، فما قرأت شعره مرة ، إلا برزت
الى ذهني ناحية ، أحسب ان اكثر الذين بحثوه ودرسوه قد غفلوا عنها ،
وأعني بها الطفولة في شعره . فان شاعراً من شعرائنا المعاصرين ، لم يبلغ
ما بلغه الشابي ، في التغني بعهودها الجميلة ، وتصوير أيامها الرائعة الرقيقة
تصويراً يضفي عليها شيئاً كثيراً من الرقة والحنان والعذوبة والسحر
والجلال . وما أعذب ايام الطفولة ، وما أبهج ذكرياتها الجميلة . انها
فردوسنا المفقود الذي كنا نشعر فيه بأننا كل شيء في الحياة . فليس لنا
الا الأمر ، وما على الآخرين الا الطاعة . ليس لنا ان نفكر في هذه الدنيا

وآلامها وأحزانها ، ولكننا نقضي ايامها في اللهو والمرح ، دون ان نحفل بها، «تدور بأهلها أم لا تدور..» حسبنا منها حنان الأمومة ورعاية الأبوة.

هذه الحقبة السعيدة في حياة كل انسان ، يصوّرُها الشابي تصويراً رائعاً يبلغ به قمة الابداع . ولقد نالت الطفولة شيئاً من اهتمام الشعر العربي . فعرّفتنا زفرات محرقة ولوعات حارة لابن الرومي والتهامي ، وتصويراً عذباً لعهودها لدى خليل مطران . ولكن هؤلاء جميعاً ، لم يزد اهتمامهم بها على بكائها في من مات لهم من الاطفال . فهم لا يلتفتون اليها الا اذا تعلقت بجاذب وفاة ، اما في معناها العام ، فما أقلّ الذين التفتوا اليها كما التفت اليها الشابي .

فلنقرأ كيف يصف ايامها في رقة ووداعة محبتين الى النفوس :

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النмир

ونحن اذا حاولنا اكتشاف السر الذي يجعلنا نعشق الطفولة ، وتعلق بآيامها الساحرة الجميلة ، فانتنا نجد انها تعيد اليها العالم قشيباً جميلاً ، وتعيد اليها الحياة كيوم خلقها ، كما تصوّر لنا البراءة والسذاجة والصراحة ، والحياة المتحررة الطليقة التي افتقدناها في هذه الدنيا ، حيث تفتحت عيوننا على صراعها الجبار ، فادركنا ان أسلحة الطفولة لا تجدي في معركتها المريعة. فلا الطهارة ولا السذاجة بمجديتين امام الرياء والاحقاد والأضغان . ومن خلال هذا العالم الذي تغمره الظلمة الحالكة ، تبدو لنا

الطفولة كما تبدو الواحة للمجهد العاني الذي طال عليه الضرب في الصحراء . انها ترفع عنا شيئاً من أثقال الحياة وأهوال الوجود :

قد كنت في زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل والجداول والزهور
لا نحفل ، الدنيا تدور بأهلها ، او لا تدور
واليوم أحيا مرهق الأعصاب مشوب الشعور
متاجع الاحساس أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ويزحف الكون الكبير
هذا مصري .. يا بني الدنيا .. فما أشقى المصير

ولست الطفولة غريبة عن حياة العباقرة الأعلام ، فهم يعيشون بروح الاطفال . وحتى ثورتهم على مجتمعاتهم لا تفسّر بغير هذه الروح ، في بعض الاحيان . ويمكن تفسير الركون الى الطفولة ، بأن الانسان قد عبر هذه الفترة ، دون ان يستشعر لذتها او ينعم بسعادتها . وهذا تفسير لا ينطبق على الشابي ، لأن طفولته كانت سعيدة مغمورة بعطف والديه ورعايتها . ويمكن تفسيره بأن الانسان انما يتشوّق الى الطفولة ، حين تنقطع عنه ، وتجابهه الحياة بواقعها المرير وتجاربها القاسية ، وبعدها عن المثالية الاخلاقية . وحينئذ لا يجد المتأمل في هذه الحقيقة ، الا ان يفزع الى طفولته ، الى أحلامه وأوهامه . وأين تكون الاحلام والأوهام ، اذا تعدّت عالم الطفولة البريئة ؟ تلك الحقبة التي نحياها طلقاء بعيدين عن كل قيد ،

تُحفنا الرعاية ، ويغمرنا الاعجاب والإكبار ، وليس لنا من هم سوى اللهو
والعبث البريء :

لا نسام اللهو البريء وليس يدركنا الفتور
فكأننا نغيا بأعصاب من المرح المثير
وكانتا غشي بأقدام بمنحمة تطير
أيام كنا لبّ هذا الكون والباقي قشور

ويلعب الواقع الاجتماعي دوراً عظيماً في حنين الشاعر الى الطفولة ،
فهو حين يصل الى قرارة بعيدة من الاخطاط والخنوع ، يدفع الانسان
الواعي الى مسالك متعددة ، ويوحى بضروب مختلفة من الكفاح .

محاربة جريئة تكشف زيفه وباطله ، مؤمنة بأن مجابهة للواقع في
أسوأ صوره وكشفه والتعرف به ، أولى خطوات الاصلاح . وان
الجناء فقط هم الذين يفرّون من مجابهة حقيقة واقعهم ، ويلوذون بأحلامهم
المخدرة واستسلامهم للبائس . وهذا الفريق الجريء قد يذهب ضحية
عقيدته وإيمانه ، ذلك لأن الناس لا تحب من يشككها في الواقع الذي استنامت
اليه وارتضته ، اذ ان الانتفاض سيدفعها الى تغييره والاتيان بخير منه .
وهي عاجزة عن ذلك ، راغبة في حياة الكسل والخمود .

انهزامية تدفع الانسان الى الاستخفاف واللامبالاة .

هروب الى الأحلام والأوهام وتطلّع الى الحياة الجميلة .

والشايي، شاعرنا الخالد، الذي كانت حياته القصيرة سلسلة من التجارب
الانسانية ، تعرّض هنا الى تجربة عميقة . فقد واجه شعبه بحقيقة واقعه ،

وأظهره على الفساد الذي يشيع في كيانه ، فكان الجحود والنكران جزاء
اخلاصه وتفانيه . حطم الشعب كأسه ، ومزق زهوره ، وألبسه تاجاً من
الشوك وثوباً من الحزن .. فالى الغاب ايها الشاعر لكي تنسى .. وحاول
ان ينسى شعبه ويهمله ، ولكنه لم يستطع . وما أعظم وطنيته حين يتجه
الى الغاب قائلاً :

سوف أنساك ما استطعت ، فما انت بأهل لخرقي ولكاسي

أيُّ وطنية أرفع من هذه التي تكن في عبارة « ما استطعت » ؟

ألا تحس معي ان الشاعر غير قادر على نسيان شعبه الذي عفه وتنكر
له؟ وكان الفرار من مشاكل شعبه أمنية من أمانيه التي لم يستطع ان يحققها
في الحياة ، لأن نفسه الكبيرة لم ترض له الانهزام :

ليت لي ان أعيش في هذه الدنيا ، بعيداً بوحدتي وانفرادي

لا أعني نفسي بأحزان شعبي ، فهو يحيا بظلمة الآباد

وهب الشابي للكفاح كل ما يملك ، وحارب واقع أمته في جبهات
متعددة ، وحين أعياه الاصلاح وأوهنت قواه عوامل الشر والفساد ،
التفت الى طفولته باحثاً عن جنته الضائعة ، فقد أيقن ان حصاده من
حقول العالم الرحيب الخطير ، لم يزد على غير الندامة والأسى والياس
والدمع الغزير . التفت اليها يبكي أصائلها الذهبية ، وأسحارها الفضية ،
وعبثها البريء .

وحب الطفولة عند الشابي ، ينطوي على معنى آخر يستحق الدراسة
والاهتمام . ألم نعرف الشابي ثائراً على كل قديم (بث) ، ومؤمناً بكل جديد

مشرق؟ والطفولة ، أليست في أبسط معانيها ، تجديداً وبعثاً للحياة ؟
فالشابي شديد الايمان بجدة الحياة . ومن هنا كان تعلقه بالطفولة في كل
شيء ، ولذلك أكثر من التغني بها وتمجيدها ، في شعره الرقيق البديع .
تغنى بطفولة الطبيعة في ربيعها : زمن الحب والبعث والتجديد ،
وطفولة اليوم : فجره وصباحه . وما اكثر ما تقرأ من تمجيد للفجر
القدسي والاصباح الجديد .

وفاتنته ، التي أوحى اليه صلواته في هيكल الحب ، لم يجد ما يتقرب
به اليها ، سوى ان يخلع عليها من صفات الطفولة ما يجعلها محبة
لكل قلب :

عذبة انت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتهام الوليد
كان يقدس الأمومة ، ويرى فيها أسمى المعاني التي تحملها المرأة .
استلهم هذا التقديس حين أراد تصوير « قلب الام » التي تفقد وليدها
الصغير . فاستطاع ، بما أوتي من رحابة في الخيال ، وعمق في الاحساس ،
وبراعة في التصوير ، ورقة في التعبير ، ان يقدم لنا قصيدة مؤثرة من
أعمق قصائد الرثاء ، تمتاز ببساطتها ونفاذها الى أعماق القلوب ، لحرارة
اللوعة التي تسري في كلماتها . فهذا الطفل الذي كان كاللحن الجميل :

ويعلم الناس البراءة والمحبة والسرور
وينير أعماق القلوب بوجهه العذب النضير
تطبق المنية جفنيه ويتفرق الصحاب ، وينسيهم المرح وداعة وجهه

وغناءه الجميل ، وينصرفون الى العبث وتشديد الأكواخ من الحشائش
والرمال والزهور . كما تنساه الطبيعة والمسارح التي شهدت مولده وكانت
مرتفع لهوه . ينساه الجميع :

إلا فؤاداً ظلّ يخفق في الوجود الى لقاءك
ويودُّ لو بذل الحياة الى المنية وافتداك
فاذا رأى طفلاً بكاك ، وإن رأى شعباً دعاك
يصغي لصوتك في الوجود ، ولا يرى إلا بهاك

الشبابی و مدرستہ حافظ ابراہیم

الى أي مدى كان الشابي تلميذاً في مدرسة حافظ (*) ؟ ..
وقبل ان أخوض في التفاصيل ، أقول انني أشك كل الشك في ان
يكون الشابي تلميذاً لحافظ ، ولديّ من الأدلة ما يدعم هذا الشك .
أولها أن التلمذة من الكلمات التي تحمل معنى واسعاً شاملاً ، لا يقف
عند الانسياق الى دعوة التجديد. فلا تكفي دعوة حافظ الى التجديد لأن
تحشر كل من جاء بعده في زمرة مدرسته .
ان التلمذة تعني أشياء كثيرة غير هذا ، تعني التشابه في الخصائص
الفنية ، من صياغة ومضمون وفلسفة في الحياة .
وما أحسب احداً يزعم أن الشابي كان يشبه حافظ ابراهيم في ذلك ،
فإنها كانتا على طريقتين .

(*) كتبت في الرد على من زعم أن الشابي من تلاميذ مدرسة حافظ ابراهيم .

ووقفه نتعمق فيها شخصية الشاعرين ، مستندين في ذلك الى آراء الذين صاحبوها وعاشروها ، وأغلبهم من أعلام الحركة الادبية المعاصرة ، نخرج منها بأن شخصية حافظ لا تتفق مطلقاً مع شخصية الشابي ، وإن مذهب حافظ في التجديد لا يلتقي في أي طريق مذهب الشابي .

وهذه الوقفة ضرورية لبيان المذاهب التي كان يسير عليها كل منها . وواضح جداً أن أي مذهب شعري أو فلسفي ، لن يكون إلا نتيجة لمقومات الشخصية والعناصر التي تتركب منها .

فشخصية حافظ ، كما يراها الدكتور طه حسين ، كانت : « بسيطة ، سيرة ، لا حظاً لها من عمق ولا تعقيد ، ولم ينفذ عقله الى طبائع الاشياء ، ولم يصل الى اسرارها ، فعجز عن إجادة الموضوع » . وفكر حافظ ، كما يراه الاستاذ الزيات ، كان : « فيض الشعور ، وعفو البديهة ، ينشأ في الكثير الغالب ، من آراء المجالس ، وأقوال الصحف ، وغزون الحافظة ، فلم تعنه حياته على التروية ، ولم يدعه اضطرابه الى التأمل ، ولم تطلقه قيوده الى الطبيعة » .

أما شخصية الشابي ، فهي رومانسية وعميقة وذات خيال فسيح وعاطفة متنوعة ، وقد نتج عن هذا العمق أن ألم الشابي واحساسه بالحياة قد بلغ من التفوق حدّاً بعيداً ، وهو في ذلك يختلف عن حافظ صاحب المزاج ، الذي لا يطبق العكوف على ألمه واجترار احزانه ، ولا التأمل الطويل في مآسي الحياة . ونتيجة لهذا ، انعدم في شعره مثل هذا الشعور المتصوف الذي يملأ شعر الشابي .

كان الشابي واسع الخيال ، بعيد المدى . وكان حافظ ، كما يقول الدكتور احمد امين : « قريب الخيال ، قلَّ حظه من الابتكار ، وقلَّ حظه من التصوير » .. وكان الشابي شديد الشغف بالطبيعة ، يؤمن بها ويعبد ما فيها من سحر وجمال . وكان حافظ قليل الشعور بالطبيعة . ويلاحظ الدكتور احمد امين : « ان عاطفته ينقصها التنوع ، فلا تجد كثيراً من شعره في جمال الطبيعة » .

ومن هنا نستطيع ان نحصر الأفق الشعري لحافظ في ابواب معينة . ثم ان الشابي ، رغم جهله باللغات الاجنبية ، استطاع ان يدرس ما عُرب من آدابها ، وان يفهمه ويتعمقه الى الدرجة التي أخذ يقارن فيها بينه وبين الادب العربي ، وان يقف معها ، الى جانب الادب الغربي ، وقفة اتهم فيها بالتمرد على ادب الاجداد ، وهجر ادب الاعراب الى ادب الاغراب .

اما حافظ ، رغم إلمامه باللغة الفرنسية ، فان ادبه كان عربياً خالصاً ، في روحه ولفظه . وليس من الصواب ان يُقال انه قد استفاد من هذا الادب في معانيه ، فلسنا نعرف له في ديوانه ، إلا بعض ابيات تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة ، نقلها عن الفرنسية . وتأثره بالآداب الغربية لا سبيل الى ملاحظته في هذا الديوان ، وهذا الرأي يجمع عليه اعلام الادب الذين عاشروه وصاحبوه وعرفوه عن كثب ، ورأيهم أولى بالنظر والاعتبار .

يقول الدكتور احمد امين في مقدمة الديوان : « ان شعره نتاج الادب العربي ، والثقافة العربية ، والتجارب الشخصية » . ويقول الاستاذ حسن الزيات : « لغته الفرنسية ظلت بكاء ، فلم يتقنها ولم يستفد منها ،

لا بالقراءة ولا بالترجمة . ويقول الاستاذ العقاد : « لا تجد بين العارفين
باللغات الاجنبية احداً أشبه منه بمن يجهلونها » . ويقول الدكتور طه
حسين : « كان حافظ يلمّ بالفرنسية ، ولكنه لم يكن يتقنها ، لا نطقاً ولا
فهماً . لم يستفد حافظ لأدبه ولشعره من اللغة الفرنسية شيئاً يذكر ، فهو
غير مدين لأوروبا بشيء من أدبه » .

وربما يكون من المفيد ان نقف قليلاً عند هذه الدعوة ، التي ضمنها
قصيدته في مبايعة شوقي ، وقصيدته الاخرى التي جاءت مستقلة ، لتتظن
مدى صدق حافظ واخلاصه لهذه الدعوة :

عرفنا مدى الشيء القديم ، فهل مدى

لشيء جديد ، حاضر النفع ممتع ؟

فهل جدّد حافظ ؟ ..

هذا السؤال يلقيه المرحوم الدكتور احمد امين في مقدمة ديوان حافظ ،
ويجيب عليه قائلاً :

« لم يجدد في بحوره وأوزانه ، ولم يجدد في اسلوبه وبيانه ، ولا تفكيره
وحياته ، انما جدّد في شيء ، هو فوق ذلك كله ، جدد في موضوعه
وأغراضه ؛ فبدلاً من ان ينظم في موضوعات امرىء القيس وطرفه ، نظم
في موضوعات عصره ، وأماني قومه » ..

هذا ما يقوله الدكتور احمد امين . وبالرجوع الى الديوان نجد أن

حافظ ابراهيم قد سلك هذا المسلك في التجديد ، قبل ان يدعو اليه في تلك القصيدة . فلماذا اذن كانت هذه الدعوة ؟..

لعله أراد بها ان يستثير غيره من الشعراء الى الاقتداء بمنهجه . وهذا المنهج كان عاماً شائعاً في الشعر العربي حينذاك ، وأغلب الظن ان المرحوم حافظ ابراهيم قد عمد الى هذه الدعوة ، ليتجنب نقادات النقاد ويطلعهم على مسيرته لهم في الرأي ، لأنه لم يكن يحمل فكرة واضحة عن التجديد ، ولا يملك منهجاً يسير بمقتضاه . ومعلوم انه قد اشتدت - في ذلك الوقت - صيحات المجددين ، وازدادت ثورتهم على المقلدين وأتباع المدرسة القديمة . وكان يتزعم هذه الحملات في الشرق الأساتذة : العقاد ، والمازني ، وشكري ، وطه حسين .

وتبقى بعد هذا ناحية أخرى ، يجب ان يحسب حسابها في دراسة التجديد . ودعوة التجديد ، كما نعلم ، كانت سابقة لحافظ ، حيث كان رائدها الاول الشاعر الكبير خليل مطران ، ومنه انبثقت المدرسة المهجريّة ، التي تلتقي مدرسة العقاد وشكري والمازني في كثير من المفاهيم الجديدة للشعر ، وأهمها : ان الشعر يجب ان يقوم على اعتبار انه قيمة انسانية ، وانه تعبير عن الشخصية الممتازة ، فيجب ان يكون أثر الشخصية التي ابتدعته واضحاً فيه .

وهذه الحدود ظاهرة في شعر الشابي اكثر من ظهورها في شعر حافظ . وأرى انه من التناقض ان نعتبر الشابي تلميذاً للمدرسة المهجريّة ، وتلميذاً لحافظ في نفس الوقت ، والفروق بين المدرستين أوضح من ان يحتاج

الانسان الى توضيحها . ويكفي ان يقال ان المدرسة المهجريّة كانت ثورة متمرّدة على المدرسة الاتباعيّة ، التي لا يستطيع احد ان ينكر أن حافظ ابراهيم كان من اعلامها المبرزين .

.. فهل يصح ، بعد هذا ، الاعتقاد بأن المدرسة المهجريّة منبثقة عن مدرسة حافظ ؟ ..

وربما كان ادنى الى الصواب ، ان يقال أن الشابي يمتُّ الى مدرسة مطران بأقوى الصلات وأوثقها ، اذ انه صاحب الدعوة الابتداعية الاولى في الشعر العربي المعاصر ، حتى ليرى الاستاذ اسماعيل أدهم ، في دراسته الرائعة عن مطران ، أن كل تجديد في الشعر الحديث يجب ان يرد اليه . ونحن نستطيع ان نحصي من عناصر المشابهة بين مطران والشابي ، ما يلي :

وحدة القصيدة ، الركون الى الطبيعة والتعاطف معها ، امتداد الخيال ، وعمق الشعور ، والقدرة على التشخيص ، وبراعة الوصف والتصوير ... على ان تأثير المدرسة المهجريّة في روحه سيظل هو الغالب على كل تأثير ، ويمكن ان نلمح ذلك في الرأي الذي يجرّ به الدكتور اسماعيل ادهم ، عندما يتحدث عن مدرسة مطران : « خلف الشابي تراثاً عظيماً للشعر العربي ، نجس في نغماته نغمات شللي . وشعره من أروع الشعر الحديث ، من ناحية عمق الفكرة ، وانفراج الحياة ، وغنى الشعور ، وعلو الخيال . وربما بدأ خطواته تحت تأثير ديوان الخليل . عبارته بعيدة عن عبارة مطران الرصينة ، وهي أقرب الى عبارة ابي شادي المتحررة .

والشابي من أصدق تلاميذ مدرسة أبي شادي في هذه الناحية . لجوء الشابي الى الطبيعة وركونه اليها ، فيه شيء من روح مطران . تآثره بأخيلة جبران ونعيمة ورشيد أيوب ونسيب عريضة ، يغطي على تآثره بروح مطران .

ولعلنا لاحظنا أن صفات الشابي، كما يحددها الدكتور اسماعيل ادم، وهي عمق الفكرة وانفراج الحياة وغنى الشعور وعلو الخيال ، لا تتفق في شيء مع صفات حافظ ، كما يحددها الاساتذة : الزيات ، وطه حسين ، واحمد امين .

حتى الوطنية، وحافظ علم من اعلامها في الشعر المعاصر، لا نستطيع ان نجد مشابهة فيها بينه وبين الشابي ، فقد كان حافظ محلياً في وطنياته ، وهذه حقيقة يؤكدها اكثر من اديب ، اذ ان حافظ ابراهيم لم يكن يطل على احداث وطنه من أفق انساني عام . ومن هنا تفقد قصائده كثيراً من قيمتها اذا ترجمت ، ولا تفقد اغلب قصائد الشابي شيئاً من قيمتها اذا نقلت الى لغة اخرى ، لأنها تعبر عن حقائق انسانية خالدة تعلق كثيراً على المناسبة التي أوحى بها . وقد حمل على هذا المسلك الاخير في كتابه عن الخيال الشعري قائلاً :

» ان شعراء الغرب ، عندما يتحدثون عن الحب والامل ، يتكلمون عنه في حقيقته ، لا كما يفعل شعراء العرب الذين يتحدثون عن أثره في الحياة » ..

ومن هذه النظرة نستطيع ان نلمس الفرق بين مذهب حافظ ،

ومذهب الشابي في الوطنية . وهي وحدها تفسر لنا الاختلاف بين :
(ارادة الحياة ، والنبي المجهول) ، وبين قصائد حافظ .

ان وطنية الشابي كانت واضحة الخطوط والمعال ، ولم تكن متروكة
للمناسبة كما كان يفعل حافظ ، فهي التي ترسم له الطريق الذي يسير عليه ،
فلا يخرج شعره عن تعليق الصحف والآراء الشائعة . ولست انا وحدي
الذي أرى هذا الرأي ، فهذا الدكتور شوقي ضيف يقول في كتابه (دراسات
في الشعر المعاصر) :

« الشعر السياسي او الوطني كان منتشراً في كل بلاد الشرق الاوسط ،
في مصر والشام والعراق ، ولكن شاعراً لم يبلغ في هذه البلدان ما بلغه
الشابي في تونس . حقاً نجد عند حافظ والرصافي وأضرابها تعبيراً سياسياً
او وطنياً مستحدثاً في لغتنا ، ولكن لا نجد عندهما هذا الاحساس الحاد
الذي يجعل الشاعر يحس أمة بأسرها » ..

وهذا الرأي يفسر لنا سر الاقبال على شعر الشابي ، الذي اصبح
انشودة الوطنية الصادقة . ومن هنا ندرك لماذا لم يضم ديوان حافظ ،
رحمه الله ، قصيدة واحدة تقف مرفوعة الرأس امام (ارادة الحياة)
و (النبي المجهول) ، في حقائقتها الانسانية الخالدة وقيمتها العامة الشاملة .
ولعل شعر الشابي في العصر الحالي ، أدنى الى التعبير عن آماني الشعوب
العربية من شعر حافظ وغيره من اعلام شعراء المدرسة التقليدية .

ان مذهب الشابي ، في التجديد ، ودعوته يختلفان كل الاختلاف عن
مذهب حافظ ودعوته ، ولا يمكن ان يكون الشابي تلميذاً في مدرسة حافظ ، لما

بينها من اختلاف في مذاهب الفن الشعري ، ذلك أن الشابي كان يسير في شعره وفق منهج رسمه لنفسه ، نتيجة دراساته العميقة للأدب العربي والأدب الغربي المترجم . وأول ما يلاحظ على تجديد الشابي انه لا يؤمن بالأدب العربي القديم ، وحافظ لم يصل الى هذا الحد من الثورة . فلنقرأ : « ينبغي لنا ، اذا أردنا ان ننشئ أدباً حقيقاً بالخلود والحياة ، ألا نتبع الأدب العربي في روحه ونظراته الى الحياة ، لأنها لم تعد صالحة للبقاء في مثل هذه العصور التي تتوثب يقظة وانتباهاً » .. « ان الصوت الغربي هو لحنان مزدوجان في آن واحد : لحن يتصل بأقصى قرار في النفس ، ولحن يتصل بجوهر الشيء وصميمه . اما الصوت العربي فليس مصدره النفس ، ولا جوهر الشيء ، ولكن مصدره الشكل واللون والوضع .. وشتان بين القشرة واللباب » ..

ويقول عن وحدة القصيدة ، وهي احدى ظواهر الاختلاف البارزة في شعر حافظ والشابي : « ان القصيدة العربية كحديقة الحيوان ، فيها من كل لون وصنف . والشاعر العربي اذا ما أراد ان يبسط فكرة من الافكار ، ألقاها في بيت او جملة واحدة اذا استطاع ، اما الشاعر الغربي فانه يعرض امام النفس الصورة او الاسباب والعوامل التي حرّكت في نفسه ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية ، ثم لا يلقيها كما يُلقى الحجر الصلد عارياً جامداً ، او كما يلقي الاساتيد تعاليمهم ، ولكنه يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال » ..

وناخذ في الاستزادة من ظواهر الاختلاف ، فقد ذكرت أن شخصية

حافظ، كما يراها الدكتور طه حسين ، بسيطة لا تطيق التعمق، وذكرت أن شخصية الشابي ، كما يراها الدكتور اسماعيل ادم ، عميقة . وهذه الناحية من أهم ظواهر الاختلاف بينها . وفي ايمان الشابي بالعمق ، يقول في كتابه (الخيال الشعري) : « الروح العربية لا تستطيع ان تنظر الى الاشياء كما تنظر اليها الروح الغربية في عمق وتؤدة وسكون ، لأنها مادية تمنعها النظرة العجلى ، التي تعلق بالسطح دون الجوهر واللباب » ..

فهل تجديد حافظ قد انتهى به الى مثل هذه الثورة على المفهوم القديم للادب ؟

ان حافظ ابراهيم يختلف مع الشابي في فهم رسالة الشعر .. فالاول يراها وسيلة من وسائل كسب الرزق ، وفي ذلك يقول الاستاذ حسن الزيات : « ان عقيدته التقليدية الخاطئة ، بأن الشعر وحده يشغل الحياة ويسط الرزق ويكسب الحقوق ، أحيته على نمط مسلم بن الوليد وأبي نواس وأضرابها ، ممن عاشوا صنائع الملوك، وحائل على الجوائز ووسائل للهو » ..

وهذا الفهم يبعد كثيراً عن فهم الشابي الذي أوضحه في قصيدته (شعري) ، ومنها :

لا أنظم الشعر أبغي	به اقتنص نوال
الشعر إن لم يكن	جماله ذا جلال
فانما هو طيف	يسمى بوادي الظلال
يقضي الحياة طريداً	في ذلته واعتزال

وأزيد القارئ من هذه الأمثلة عن رأي الشابي في الادب العربي :
 « أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوّف الى المستقبل ، ولا نظر الى
 صميم الاشياء ولباب الحقائق ، وانه كلمة ساذجة لا تعبر عن معنى عميق
 بعيد القرار ، ولا يفصح عن فكر يتصل بأقصى ناحية من نواحي
 النفوس » .. « وان الباحث فيه ليجهد نفسه في التنقيب عن ذلك الفن
 الذي يقرأه وهو خاشع ، ويسمعه وهو يصيح بكل ما في روحه من شوق ،
 وكل ما في قلبه من شغف ، كأنه يستمع الى الوحي من لسان القدرة الأزلية ،
 ذلك الفن السماوي الذي نشعر ، حين قراءته ، باتساع أفق الحياة وبانفاس
 دقيقة الاحساس في قلبه ، حتى يكاد يسمع هدير العواصف بين جنبيه ،
 وخرير الحياة في عروق الكون ، فيعييه البحث فيه » ..

وفي الكتاب (*) ايضاً شواهد كثيرة وآراء في التجديد، تزيد القارئ
 ايماناً بالهوية التي كانت تفصل مدرسة حافظ عن مدرسة الشابي. ونحن نعلم
 مقدار الأصالة التي يتمتع بها الشابي ، وهي التي أهّلت له لأن ينشئ مدرسة
 واضحة الأثر في الشعر العربي الحديث. ومن هذه الشواهد رأيه في المرأة
 ونظرة الادب العربي اليها ، وهو يقول : « ان نظرة الادب العربي الى
 المرأة ، نظرة دنيئة سافلة ، منحطة الى أقصى قرار من المادة ، لا تفهم من
 المرأة إلا أنها جسد يُشتهى ، ومتعة من متع الحس الدنيء » ..

ولست في حاجة الى الاشارة الى أن الغزل او المرأة لم يظفرا من

(*) الخيال الشعري عند العرب .

حافظ بنصيب يُذكر ، وان رأيه فيها لا يخرج عن الآراء الشائعة . كما
لست في حاجة الى التنبيه الى السموّ وارتفاع المنزلة ، اللذين وصلتهما
المرأة في شعر الشابي ، « وصلواته في هيكل الحب » ستبقى مفخرة الشعر
المعاصر ، ودليلاً حياً على مذهبه والتزامه للدعوة التي جاء بها في رد الاعتبار
الى هذه المخلوقة المظلومة ، حيث ننظر اليها « تلك النظرة السامية ، التي
يزدوج فيها الحب بالاجلال والشغف بالعبادة » .. « تلك النظرة الفنية ،
التي تعد المرأة قطعة من فنون السماء يلتمس لديها الوحي والالهام » ..
وقد حاول « ان يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة ، تحمل بين
جنبها سعادة الحب ومعنى الأمومة ، وهما أقدس ما في الوجود » ..

وقد لاحظ القارئ في أول هذه الكلمة ، أن عاطفة حافظ لم تعرف
التنوع ، كما يقول بذلك المرحوم احمد امين ، فهي بسيطة كشخصيته .
ولذلك لا نعرف له شعراً في الطبيعة كهذا الشعر الذي نجده عند الشابي ،
الذي كان يسير وفق مذهب كونه لنفسه وآمن معه بأن الشعر العربي في
اكثر أحواله كان خالياً « من هذا الشعر الذي يتغنى بحاسن الكون ومفاتيح
الوجود، حتى اذا ذكر الشاعر شيئاً من ذلك، لا تظهر فيه العاطفة الملتبسة
ونشوة الشعور » ..

والذين قرأوا شعر الشابي يدركون مدى صدقه واخلاصه في الالتزام
لهذه الدعوة ، ومدى حبه وفنائه في جمال الطبيعة . وهو في هذه الناحية
ايضاً يختلف وحافظ . ويطول بنا الحديث لو أخذنا في استعراض رأي
الشابي في الشعر والادب العربيين ، ذلك الرأي الذي سار عليه في شعره .

وفي الكتاب نظرات ودراسة عن الخيال والأساطير العربية، ورائده في ذلك البحث عن نصيبها من العمق . وهو يفضل الأساطير اليونانية والرومانية ، لأن العربية لا حظ لها من وضاعة الفن وإشراق الحياة .

هذا استعراض لبعض الآراء التي بسطها الشابي في كتابه « الخيال الشعري عند العرب » . وقد قصدت من ذلك التدليل على الفروق الواضحة بين مدرسة الشابي ومدرسة حافظ ابراهيم . وان الشابي كان يحمل آراء واضحة في التجديد سار عليها في شعره ، ومنها يتبين لنا أن تجديد الشابي لا يدين به لحافظ ، وإنما هو من وحي فطرته وشخصيته العميقة وخياله البعيد المدى وعاطفته المتنوعة الملتهبة . وهو يلتقي في هذا التجديد بالمهجرين ومطران والمدرسة النقدية التي أنشأها العقاد والمازني وشكري، وغيرهم ممن اطلعوا على الآداب الغربية .

هذا رأيي .. وان حافظ ابراهيم ليبلغ من نفسي مكانة من السموات عز على غيره ، وكلما ذكرته ذكرت قصة اول ديوان وقع في يدي ، وقصة اول شاعر قرأت له وأعجبت به ، ولكنني أرى أن حافظ ابراهيم غني بمزاياه عن ان تضاف اليه مزايا الآخرين .

الشبابي وتجربته الشعرية

والعوامل الفعالة التي اشتركت في تكوينها

تجربة الشابي الشعرية ، تجربة غنية وسخية . وقد ترك لنا الشابي من الآثار الادبية الثرية ، ما يكون في مجموعه تحديداً كاملاً متناسقاً لتجربته الشعرية ، ورسماً واضحاً لمعالمها . وقد استطاع ان يخرج من تحديدها باتجاه واضح ينسجم ومقومات شخصيته ، وبواعثها النفسية . وقد التزم هذا الخط وسار عليه في كل ما أنتج ، وكان خليقاً ان يتطور وينمو ، لو لم يختطفه الموت ، وهو في بداية الطريق ونضارة الشباب .

وكل تحديد للتجربة الشعرية لدى الشاعر ، لا بد ان يأخذ في اعتباره وتقديره مقومات الشخصية الفنية للشاعر ، والاتجاهات الفكرية السائدة في عصره ، وموقفه منها رفضاً او قبولاً ، وكذلك موقفه من التراث القديم ، وتحديد له معنى الشعر كما يراه ويمارسه ويدعو اليه .

(*) أعد هذا البحث للشاركة به في مهرجان الشابي الذي نظمته كتابة الدولة للشؤون الثقافية في تونس ، فبراير ٦٦ . وقد دعي المؤلف لحضوره ، ولكن ظروف طارئة حالت دون مشاركته .

فما هو الشعر عند الشابي ؟..

سؤال يتكفل الشابي بالرد عليه ..

« ان الشعر يا صديقي ، تصوير وتعبير ، تصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك مغنية ، ضاحكة لاهية ، او مقطبة واجمة باكية ، او وادعة حاملة راضية ، او محترقة ثائرة ساخطة ؛ وتصور لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك ، وتقلبات أفكارك ، وخلجات نفسك ، ورفرفة احلامك وعواطفك .

« وتعبير عن تلك الصور وهاته الآثار ، بأسلوب فني جميل ، ملؤه القوة والحياة . يقرأه الناس ، فيعلمون انه قطعة انسانية من لحم ودم ، وقلب وشعور ، لأنهم يحسون انه قطعة من روح الشاعر وعبق عواطفه ، او فلذة حية من فؤاد الحياة .

« هو هذا الاسلوب الذي يكون عنيفاً كالعاصفة ، يمثل سخط الحياة او فورات العواطف ، ويكون وادعاً كضوء القمر ، حيناً يمثل طمأنينة الحياة وسكون النفس ، ويكون رقيقاً شجياً كأنات ناي بعيد ، حيناً يمثل احلام الحياة ويحوي القلوب المتحابة ، ويكون كثيباً مظلماً كقلب الظلام ، حيناً يمثل بؤس الحياة وأحزان البشر .

« فالتصوير الصادق الذي يريك تصورات الشاعر أرقى من تصورات البشر ، والتعبير الفني الجميل الذي يكون قابلاً انسانياً حياً لذلك المعنى الذي يشمل ، ذلك هو الذي ينبغي لك ان تبحث عنه كلما قرأت قصيداً .

او رتلت مقطوعاً او تصفحت ديواناً ، فإن وجدته فكن على يقين انك
انما تقرأ شعر الحياة ، وإن أخطأته فاعلم انك تقرأ شعراً زائفاً لا قيمة له
في سوق الخلود .

« ولا يهكم بعد ان تجد التصوير الصادق والتعبير الصحيح ، أكان ذلك
شعراً غنائياً يتغنى بخوالج النفس وعواطف الانسان ، أم كانت قصصاً
يقص عليك فصول الحياة كما هي ، او يرسم لك مُثلها العليا كما توحىها اليه
احلامه ، أم كان تمثيلاً يمثل لك كثيراً من حقائق النفس وصور الحياة
ومشاهد الوجود .. وانما الذي يهكم ، بعد ان استوثقت ان الذي بين
يديك نتاج قريحة خصبة منتجة وخيال حي صحيح ، هو ان تعرف انك
تقرأ مثلاً أعلى من الشعر الانساني الذي يكاد يسمو الى درجة الالهام ، او
انك تقرأ مثلاً دون ذلك .

« ولكي تدرك هذه الحقيقة ، فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع
أفق الحياة في نفسك ، ويجعلها تحس بتيارات الوجود اكثر مما تحس ،
وتدرك من معانيه وأصواته اكثر مما ألقت ان تدرك ، وينسبك وجودك
الانساني لحظة لتستغرق في عالم الجمال المطلق ، الذي يخلقه الشاعر
حواليك ، ويسبغ منه على نفسك . أقول انظر ، اذا كان من هذا النوع ،
فاعلم انك تقرأ شعراً إلهياً لا تجود بمثله الحياة كثيراً ، وإلا فاعلم انك تقرأ
مثلاً دون ذلك .

« ذلك هو الشعر في نظري يا صديقي ، وهذا هو المقياس الذي أعرف
به الشعر من غيره ، وأدرك به المثل الاعلى مما عداه . ولكنني قبل ان

أفارقك ، أقول لك ان هذا المقياس يقضي عليك ، إن اتبعته ، ان تلقي
بكثير من أصنام الشعر ودواوين الشعراء الى النار ، الى سلة المهملات .
فإن كنت رقيق القلب ، جم العواطف ، فاني أنصح لك في اخلاص ، ان
لا تأخذ هذا المقياس يا صاحبي ، وان تقنع بمقياسك ، إن كان لك مقياس
تقدّر به قيم الشعر في عالم الادب . وإن كنت من الاخلاص للآدب والفن ،
بحيث لا يزنك مشهد الاصنام البشرية تحترق في صميم الحياة ، ولا يحرك
نفسك او يهز مشاعرك رؤية الاسفار الكثيرة تندثر في ظلام الاهمال ،
وتنبعث منها رائحة الموت ، فلتأخذ هذا المقياس ، ولتكن مخلصاً في
استعماله . وأنا الكفيل بانك تكون قد حزت مقياساً دقيقاً تعرف به كيف
تفرق بين شعر الحياة الخالد ، وبين شعر السخافات والتقاليد «(*)» .

ذلك هو مفهوم الشعر عند الشابي ، وهو مفهوم يرفض ذلك التحديد
التقليدي الشائع : الشعر هو الكلام الموزون المقفى ، ليضع مكانه تحديداً
يستمد اصوله من تصوير الحياة والتعبير عنها في مختلف مظاهرها ، تعبيراً
يحمل اثر التجربة الانسانية وصراع الانسان في الوجود .

ويقترض الشابي في هذا التحديد ، ان يكون الشاعر انساناً ممتازاً
بشعوره وامتازاً بتعبيره عن هذا الشعور ، وان تصوراته أرقى من
تصورات البشر العاديين ، وانه ما جاء هذه الحياة ، وما وضعت على لسانه
الكلمة الشاعرة ، إلا لكي تحمل الى البشرية ما يفتح قلبها وعينها على أفق

(*) من النصوص النظرية التي أثبتتها ابو الغاسم كرو في كتابه (٢٠٠٠ الشابي وسداه في الشرق) .

انساني جديد ، ويملاً وجدانها بتجربة جديدة عميقة وأصيلة ، تريد من رصيدها الشعوري ، وترفع من قيمتها ، وتمنحها نظرة أرحب الى الكون وحقائق الوجود .

ويدرك الشابي خطورة هذا التعريف ، في عصر لم يألّفه ، وفي بيئة لم تتجاوب معه ، فينبه الى ان هذا المقياس خليق ان يدفع بصاحبه الى التضحية بالانصام التي أقامتها الاجيال .

وهنا نلتقي بأولى مظاهر الرفض للتجارب الشعرية القديمة التي اتخذت من ذلك التعريف الماثور شعاراً يقتل كل صدق شعوري وتعبيري ، ويضعف التمييز بين شعر الحياة الخالد وشعر السخافات والتقاليد .

وقد كانت الشابي مدرّكاً لما ينبغي ان يكون عليه الشعر من التزام بالحالات النفسية وتعبيره عنها، وكان يشعر بما يجب على الشاعر ان يتوخاه من أداء نفسي يصاحب عواطفه المختلفة . وفي هذا ايضاً نوع من الرفض للقوالب الثابتة للتعبير عن الحالات والمناسبات ، كما حددها قدامى النقاد . فقد كان لكل من الرثاء والمدح والهجاء قواعد ثابتة .. حتى تحول الشعر الى صناعة تسير وفق منهج محدد . وكان حظ الشاعر يتحدد من الخطوة بمقدار محافظته عليها والتزامه لها .

ان صورة الشاعر ، لدى الشابي ، هي صورة « ذلك الفنان الذي يكون في روحه شيء من طبع النبوة ، التي تبصر ما لا يبصره الناس ، وتشعر باسمى ما يشعرون ، وغنصر من معنى الألوهية التي تخلق المادة الصماء حياة ساحرة وفلكاً دائراً ... ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره

فلذة من روحه ونسمة من حياته ، فاذا هي ناطقة تعبر في قوة وابداع ، عما في هذا الوجود من سحر وجمال ، ويتغنى بما يزخر به قلبه البشري من عطف وبغض ويأس وحنين ولذة وألم وغايات ومثل ... ذلك الجبار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر ، ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح وحيرة الفكر التائهة بين نواميس العالم وبهاء الوجود ، (*) .

هذا هو النموذج الذي يضعه الشابي ، مقابلاً للنموذج الذي وضعته الاجيال القديمة وحددت وظيفته في ان ينظم الكلام الموزون المقفى ، وينذر ملكاته للمدح والهجاء والارتباط بالاحداث العامة والمناسبات العابرة .

كان ذلك هو النموذج الذي قدمته بيئته المعاصرة له ، وهو الذي قامت ضده ثورة المجددين ، لخلق الشاعر الذي يضطلع برسالة الشعر وفق مفهومها الانساني .

ذلك هو هذا النموذج الذي حاول ان يبحث عنه الشابي ، دون ان يجده فيما حوله من بيئة أدبية ، انحصر هم الشعراء فيها على الارتباط بالمناسبات العامة والاحداث الطارئة . وذلك هو المثال الذي تطلع اليه في شوق ، وسعى الى ان يحققه وان يعيشه ، وان يكون في مستواه كما تمثل في ذهنه .

وقد تكون هذا النموذج في وجدانه ، من رفضه للنماذج القديمة التي

(*) (آثار الشابي وصداه في الشرق) لأبي القاسم كرو .

قدمتها عصور الانحطاط الادبي ، ومن اطلاعه على النماذج التي قدمتها العصور الحديثة ، في الشعر الذي أبدعته ، وفي للقيم النقدية التي حاولت ان تؤكدها ، وتفتح بها نافذة جديدة تطل على معنى الشاعر ووظيفته كما تبدو في الآداب العالمية التي تأثرت بها هذه المدارس .

وقد دفعه إيمانه بهذا النموذج، الى ان يحمل معولا يهوي به على الجنوع الخائرة، ويلتفت اولا الى واقع البيئة الادبية في بلاده، فيرى ان شعراءها « أرواح مقفرة مجدبة فارغة ، لا حس فيها ولا فن ولا حياة ، ولو كانت أعماقها تحتوي على تلك القوة الحية الملتهبة ، لكنت آثارها مطبوعة بطابعها المشوب ، فان الذرة لتخترق الصخر اذا استيقظت فيها قوة الحياة الكامنة. وكيف تريد من شعرائنا التونسيين ان يكونوا غير ذلك، وهم انما يعيشون على هامش الحياة ولا يخوضون أحشائها ، ويستوحون صفحات الكتب ولا يستوحون هذا الوجود ، ويصغون الى هذر الشعب ولا يصغون الى أصوات قلبه الكبيرة ، ويتغنون برغبات المجتمع الزائلة ولا يتغنون بمطامح الانسانية الخالدة » ..

ومن الواضح ان الشابي يتجاوب في ذلك مع الدعوات التي حملتها المدرسة الجديدة ، التي كانت تندد بتسخير الشعر للمدح والثناء والتباني والمعالجات الصحفية للأحداث والمناسبات والمشاكل الاجتماعية والسياسية. وكان الشابي يرفض ادب هذه الفئة، رغم اعترافه بما تهيأ لها من صلة بالقديم ظهرت في صياغتها وتعبيرها الجميل ، كما كان يرفض ، في الوقت نفسه ،

التجديد السطحي المبذل الذي يقتصر على التفاعل المرتجل ، دون أن يرفده اطلاع واسع وشعور عميق .

وبين يدي هاتين الطبقتين ، كان مصير الشعر في بلاده وفي عصره :
 « طبقة لم تكون لنفسها ثقافة ، الا بما يحمله الينا الشرق من روايات ومجلات وصحف مختلفة الاحجام والاشكال ، وما تطالعه من خلال ذلك من ادب المدرسة الجديدة في المهجر والشرق . وطائفة هذا حظها من الثقافة ، لا ينتظر منها أكثر من هذا الادب الفج السخيف المهزول في روحه واسلوبه ومعناه .

« وطبقة كوَّنت لنفسها ثقافة صالحة من قديم الادب وحديثه، فكان لها الاسلوب الجميل ، والنسيج الرصين ، والصناعة البارة .. وقد كنا ننتظر ان نجد عندها ، الى جمال التعبير وقوته ، طرافة المعنى وعمق التفكير وحيوية الروح الشاعرة ، فخابت آمالنا فيها . فان شعراءها ما فتئوا يسخرون أشعارهم للمدح الكاذب ، والرثاء المصنوع ، والمعاذير والتهنئات ، وغير ذلك من أكاذيب الشعر . وإن خرجوا عنها فالى مواضيع صحفية مبتذلة باردة يسمونها في غفلة مضحكة شعراً اجتماعياً . قد كنا نتعلل للنشأة الاولى منهم ، بأنها استيقظت على ضوء فجر جديد لا عهد لأحلامها به ، فلما أرادت ان تجدد الشعر ، بجارة لتياره ، لم تجد أمامها غير الصحف من بدع هذا العصر ، فأخذت في حيويته ، تقلد الصحف في الغاية والموضوع . وبذلك اصبح الشاعر صحفياً ينظم في أحداث عصره ومشاكل قومه ، حتى لقد نظموا في أزمة

المعاش وغيرها من توافه الدنيا ومحقرات الامور ، (*) ..

لقد كان الشابي يدعو للتجديد ويعمل من أجله . وقد كانت شعره اضافة سخية للشعر العربي المعاصر ، فلم يكن صوتاً مردداً لتجربة سابقة ، ولكنه كان صوتاً أصيلاً عبّر عن شخصيته في قوة وذاتية متفردة .

ولقد كان للشابي موقف من التراث القديم . وما من شاعر إلا دخل التراث القديم في تكوينه الوجداني والتعبيري . وقد كان الشابي على صلة بهذا التراث القديم ، فهذا الاسلوب الذي استوى له في مرحلة النضج على خير ما تستوي الأساليب قوة وصفاء وموسيقية لفظية ونفسية ، انما كان مستمداً من عمق صلته بالتراث الذي قرأه فادمن قراءته ، ودخل في تكوينه كعامل اساسي ورافد غزير لتجربته الشعرية .

ولقد نشأ الشابي في بيئة فكرية ، تميزت بالمحافظة على التراث والغيرة عليه ، واعتماده وسيلة اساسية في التكوين الثقافي للفرد . وتلقى تعليمه في الجامعة الزيتونية ، وهي احدى المعاقل الكبرى للثقافة العربية الاسلامية .

وقرأ الشابي ما تهيأ له ان يقرأه من الشعراء القدامى ، الذين اكتشف عن طريقهم معنى التجربة الشعرية التي مر بها الشعر العربي ، منذ الجاهلية حتى العصر الحديث . فقد كان على علم بهذه الرحلة الطويلة التي قطعها هذا الشعر ، وهو ايضاً على صلة قوية باعلامه ، وإدراك بصير بمواطن القوة والابداع فيه . وهو في ثورته على القديم ، لم يكن ثائراً سطحياً او

(*) (٢٢) الشابي وصداه في الشرق) .

ثائراً جاهلاً بهذا التراث . وكتابه « الخيال الشعري عند العرب » ، دليل على ان الشابي قد كوّن لنفسه صورة عن التجربة الشعرية القديمة، وشعر بأنها لم تعد تلائم التجربة الحديثة للشاعر الحديث الذي ينبغي له ان يرتاد آفاقاً جديدة .

كانت ثورة الشابي ثورة عنيفة عارمة ، ولكنها لم تفقد احترامها وتقديرها للقديم ، فهو يشعر بأهمية الدور الذي أدّاه هذا الادب ، ويكبر ما قدمه للأجيال القديمة من تعبير عن تجربتهم في إطار عصرهم ومفاهيمهم السائدة ، ولكنه كان يدعو الى شعر يعانق التجربة الحديثة للانسان العربي الحديث ، ويعبر عن تجربته التي يخوضها في وجوده المعاصر . انه يبحث عن تلاؤم بين الحياة التي نعيشها ، والتعبير عنها ، فلم يكن من المعقول لديه ان يعيش فكرنا على صور الماضي ، ويتخذها وسيلة تعبير عن حاضر منفصل كل الانفصال عن قيم العالم القديم . انه يبحث عن إضافة ابداعية ، والابداع لا يتم الا بالتجاوز والتخطي للقديم .

ولقد كان الشابي يدعو للتجاوز ويعتبره ابداعاً ، ويرى في الوقوف عند القديم جموداً .

« عندما أقول ذلك الرأي عن الادب العربي ، لا أزعّم انه لا يلائم أذواق تلك العصور ولا أرواحها ، ولكني أقول انه لم يعد ملائماً لروحنا الحاضرة ولمزاجنا الحالي ولأميلنا ورغائبنا في هذه الحياة . فقد اصبحنا نرى رأياً في الادب لا يمثله ، ونفهم فهماً في الحياة لا نجده عنده ، ونطمح بأبصارنا الى آفاق اخرى لم تحدثها أحلامه ولا يقظاته . لقد اصبحنا

تتطلب أدباً جيداً نضيراً يجيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور ،
نقرأه فتمثل فيه خفقات قلوبنا وخطرات أرواحنا وهجسات أمانينا
وأحلامنا ، وهذا ما لا نجده في الادب العربي القديم . لقد أصبحنا نتطلب
أدباً قوياً عميقاً يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة ، بما
فيها من شوق وأمل . وهذا ما لا نجده في الادب العربي ولا نظفر به ،
لأنه لم يُخلق لنا نحن أبناء هذه القرون ، وإنما خلق لقلوب أحرستها
سكينة الموت . أما نحن ، فما زلنا أبناء الحياة ، ولهذا فلا ينبغي لنا ان
ننظر الى الادب العربي كمثل أعلى للادب الذي ينبغي ان يكون ، ليس
لنا الا احتذاؤه ومحاكاته في اسلوبه وروحه ومعناه ، بل يجب ان نعدّه
كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس إلا . اما ان يسمو
هذا الاعجاب الى التقديس والعبادة والتقليد، فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا
الآن، لأن لكل عصر حياته التي يحيها ، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه
من روحها القشيب « (*) »

ذلك هو المحور الاساسي الذي تدور عليه أغلب الآراء التي ضمنها
محاضراته الجريئة « الخيال الشعري عند العرب » . ولا نكران في ان هذه
المحاضرة تنطوي على تحامل عنيف على الروح العربية ، كما تنطوي على ظلم
فادح في المقارنة بين الشعر العربي القديم والشعر الغربي الذي أنتجته
عصور الرومانسية ، دون مراعاة للظروف والبيئات . وأي ظلم أفلح

(*) (الخيال الشعري عند العرب) لأبي القاسم الشابي .

من أن نضع شاعراً جاهلياً مثلاً ، في ميزان واحد مع لامارتين ؟.. هكذا كان شأن الشابي في هذه المحاضرة .

كان الشابي يبحث عن صورة جديدة في ادب قديم ، وحين تعذر عليه العثور على هذه الصورة التي تشبه الصورة التي خرج بها من قراءته لأدباء الرومانسية الغريبة ، حمل على ذلك الادب حملة جائرة . وخلص منها الى ان هذا التراث مستنفد ، عاجز عن مماشاة الحياة الجديدة ، ودعا الى تخطيه بإبداع جديد ، واستلهم التجربة الحديثة للانسان العربي مع الانفتاح على الآداب العالمية التي رأى فيها المثل الاعلى للادب .

« ان الادب العربي ادب لا سحر فيه ولا إلهام ، وانه ينبغي لنا ، اذا أردنا ان ننشئ ادباً حقيقياً بالحياة والخلود ، ألا نتبع الادب العربي في روحه ونظراته الى الحياة ، لأنها لم تعد صالحة للبقاء في مثل هذه العصور . »

ويقارن الشابي بين صورة الشاعر العربي ، والشاعر الغربي ، بين ظاهرة الرصد الخارجي للتجربة الشعرية كما تبدو عند الشاعر العربي ، التي تقف به عند حدود الاحاطة الشاملة بالمشهد الخارجي ، وبين الاستبطان الداخلي والتأمل الذاتي للتجربة التي تفيض من نفس الشاعر فتخلع معانيها على الاشياء .

« الشاعر العربي ، اذا عن له مشهد جميل استخف نفسه واستغنى شعوره ، عمد الى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله ، فأعطى منه صورة واضحة او غامضة على حسب نبوغه واستعداده ولباقة في الرسم والتصوير ، دون ان يكشف عما أثاره ذلك المشهد في نفسه من فكرة وعاطفة وخيال ،

كانما هو آلة حاكية ليس لها من النفس البشرية حظ ولا نصيب ، فهو كالمصور الفوتوغرافي ، لا يهيمه إلا التقاط الصور والاشباح وإظهارها كما هي ، دون ان يرسم معها صورة في نفسه ولوناً من شعوره .

اما الشاعر الغربي فانه يفتح امام القارئ مغاليق نفسه ، ليريه ما أهاجه بها المنظر من عاطفة راکدة ووجدان كمين ، ويجعله يحس بقلبه ذلك الوتر الذي اهتز في أعماق نفسه ، فلا جوانبها بالأنغام ، وأهاج بها سواكن الاحلام . ثم هو إزاء ذلك ، إما انه يصف المنظر ويسبغ عليه من الخيال الجميل حلة ضافية مشبوبة متأججة ، وإما ان يسكت عن المشهد . وذلك هو علة ما نحسه من ان الصوت الغربي أقوى دويأ وأبعد رنيناً من الصوت العربي الخافت الضعيف ، لأن الصوت الغربي هو لحنان مزدوجان في آن واحد : لحن يتصل بأقصى قرار في النفس ، ولحن متصل بجوهر الشيء وصميمه . اما الصوت العربي فليس مصدره النفس ولا جوهر الشيء ، ولكن مصدره الشكل واللون والوضع .. وشتات بين القشرة واللباب ، (*) ..

وتلك نتيجة طبيعية للروح العربية التي يراها الشابي :

« الروح العربية خطائية مشتعلة ، لا تعرف الأناة في الفكر فضلاً عن الاستغراق فيه ، ومادية محضة لا تستطيع الا بالغير الظواهر ، ما يدعو الى الاسترسال مع الخيال أبعد شوط وأقصى مدى . وبين هاتين التزعتين ،

(*) (الخيال الشعري عند العرب) للشابي .

الخطابية والمادية اللتين ذهبتا بها في الحياة مذهباً خاصاً، كان لها ذلك الطبع الشبيه بالنحلة المرحّة ، لا تطمئن الى زهرة حتى تغادرها الى اخرى من زهور الربيع ، ولذلك فهي أبداً متنقلة وهي أبداً حائمة ،^(*) ..

ويعزو الشابي هذه النظرة ، التي ظلت تسود الادب العربي بشكل واحد في جميع العصور ، وجعلت منه نسخة مكررة في الروح واسلوب المعالجة ، مما أسبغ عليه طابع الرتابة والقوالب الثابتة ، الى الاسباب التالية :

١ - سيطرة التقاليد الادبية .

٢ - الفهم الخاطيء لعنى الادب ورسائلته في الحياة ، والنظر اليه على انه قيمة لفظية لغوية .

٣ - عدم اطلاع العرب على آداب الأمم الاخرى .

ومن هنا كانت ثورة الشابي على التقاليد الادبية التي تنظر الى القصيدة العربية كوجود ثابت ، وإنكاره لسيادة المفاهيم النقدية القديمة ، ودعوته الى العزوف عن النماذج القديمة التي استنفدت أغراضها ، ولم تعد تحمل أي مظهر تعبيرى عن تجربة الانسان ، وانما اصبحت لعبة بيانية . ومن هنا ايضاً كانت دعوته الى ادب جديد لا يرتبط بهذا القديم في روحه ومعناه .

حاول الشابي ان يشارك في تصحيح معنى الشعر بالأمثلة الحية التي قدمها ، والتي كانت جديدة في روحها ومعالجتها ، وبالموقف الشائر الذي

(*) (الخيال الشمري عند العرب) للشابي .

اتخذ من الشعر القديم والشعر التقليدي المعاصر له . فقد كان يرفض النظر الى الشعر على أنه قيمة لفظية ، ولكنه رسالة وجدانية تعبر عن أعماق الانسان وذاته الفريدة . وشعره كله تأكيد لهذا المعنى الذي وهبه جباته ، فارتفع بالشعر عن النظرة القديمة التي لازمتها ، ونظر اليه على انه جد لا هو فيه . وقد أخذ فعلاً بجديّة ، وأعطاه من قلبه كل شيء ، حتى كان لنا منه ذلك الشاعر العاطفي الرقيق الذي تتغذى كلماته من وجدانه .

وانطلاقاً من هذه الفكرة التي كوّنّها عن الادب العربي الذي لا يستدّ حاجتنا النفسية – في رأيه – كانت دعوته الى الانفتاح على الآداب العالمية ، والاستفادة منها والاقتداء بنماذجها الجديدة على الوجدان العربي .

ولم يكن الشابي على صلة مباشرة بهذه الآداب ، فقد كان يجهل اللغات الاجنبية ، ولكنه استطاع ان يتمثل معالم هذه الآداب من خلال الترجمات والتعليقات التي حفل بها عصره ، مما جعله على صلة واعية بهذه الآداب قد تفوق صلة العارفين بها في لغاتها الاصلية . فقد كان جهله للغة أجنبية يدفعه الى ان يثقلها في جدية ، وان يقرأها في امعان وتعمق ، وان يتفهمها تفهماً واعياً دفعه الى التعصب لها والايان بها كوسيلة للخروج بالادب العربي من جموده .

كان يؤمن بالاتصال بالآداب الاجنبية والخروج من الطريق الذي سلكته الاجيال في احتذاء النموذج الجاهلي الثابت الذي سيطر على مختلف العصور الادبية التالية . ويعتقد الشابي ان الغرور العربي هو المسؤول عن انغلاق الادب العربي وعدم تفتحه على التجارب الادبية الاخرى ،

« فقد كان العرب معترّين بأدبهم يحسبونه كل شيء في العالم ، فلم يجدوا حاجة تدفعهم الى ترجمة الآداب الاخرى، وظل المثل الاعلى الذي تحتذيه العصور الاسلامية في روحه واسلوبه هو الشعر الجاهلي ». ومن المهم هنا ، ان نعرف العوامل الفعالة التي شاركت في تكوين هذا الموقف من التراث الادبي ، والدعوة الى التجديد ، وتقليد الادب الغربي في روحه ومعناه . فالشاببي الذي كان يرفض ان يكون أدبنا الحديث صورة للادب العربي في روحه ومعناه ، كان يدعو الى تقليد آخر للآداب الغربية التي فتن بها . وزاده جهله باللغة شعوراً بفتنتها وإيماناً بأنها فردوسه المفقود الذي لن يدخله ، وأنه عليه ان يقنع بما ينقل اليه من صورته وفنونه .

وأهم هذه الاسباب : مزاجه . فقد كان الرجل مطبوعاً على مزاج رومانسي ، وكانت أحب الصور الى نفسه تلك التي يقدمها الادب الرومانسي ، بما فيها من سحر وخيال وعاطفة حادة عميقة ، وكان المقياس الذي يأخذ به الادب مقياساً ذاتياً . فهو قريب الى نفسه اذا خاطبها بما تريد ، بعيد عنها اذا خاطبها بطريقة غير هذه التي ألقت سماعها لدى أدباء الرومانطيقية الغربيين والمتأثرين بهم من العرب . وأغلب النماذج الادبية التي ساقها دليلاً على وجهة نظره في كتابه « الخيال الشعري عند العرب » ، نماذج من الرومانسية الغربية ومن شعرائها .

وأغلب ما كان يفتقده في الادب العربي ، هو الاحساس الرومانسي نحو الانسان والطبيعة .

والعامل الثاني، في هذا الموقف ، عصره . ولقد عاش الشاببي في عصر

حفلت فيه الحياة الادبية بمختلف النشاطات الفكرية ، والمراجعة العامة لمختلف المفاهيم الشائعة . وكانت الدعوات التجديدية التي برزت في مدرسة الديوان ، ومدرسة المهجر ، ومدرسة أبولو . وكان الشابي يتابع هذه المعارك ، ويتأثر بها ، ويشارك فيها . وكان موقفه يميل به الى الجديد والتجديد . وان كثيراً من الاصول التي تتكون منها آراؤه ، يمكن ردّها الى هذه المدارس التي ذكرناها والتي تأثر بها الشابي تأثراً واضحاً ، باستثناء مدرسة أبولو التي كان من أعلامها البارزين ولم يكن من تلاميذها .

وقد يكون من المفيد ان نقف وقفة عابرة عند الآراء الادبية التي كانت شائعة في عصر الشابي ، لكي ندرك حقيقة موقفه .

كان العقاد يحمل راية التجديد ، وكان يخاصم شوقي من أجل هذا التجديد ، وكان يكتب المقالات العديدة في تأكيد مفهومه للشعر ، ويدعو الى ظهور شخصية الشاعر في شعره ، وان يكون شعره وثيقة نفسية تعرّفنا بمزاجه ونظراته الى الحياة . وكانت هذه الدعوة تؤكد الجانب الذاتي الذي يلتقي مع المزاج الرومانسي . وكان العقاد ينادي بوحدة القصيدة والنظر اليها ككائن حي لا يمكن نقل جزء منه مكان جزء آخر . وان فشل العقاد نفسه في تأكيد هذا المفهوم على شعره ، وقد صحح الاستاذ العقاد كثيراً من المفاهيم التي تتصل بالشعر ، ومنها وظيفة التشبيه ، وتحديد معنى العصرية في الشعر ، بحيث لا يتحقق التجديد بوصف المخترعات والمكتشفات .

وكان المازني يكتب دراساته النقدية عن ابن الرومي وبنشار ، ويدعو

الى الصديق في الاحساس والتعبير . وكان متأثراً بالادب الغربي ، متعصباً له ، وكان يفضل الشعر الغربي ويبرز عيوب الشعر العربي . ويفسد الدعوى القائلة بأن العرب أشعر الأمم قائلاً : « لسنا نحاول الزاوية على العرب او الغض من شعرهم ، وانما نريد ان نقول أن العرب ليسوا أشعر الأمم . وان احداً ليقرأ آثار الغرب ، فيملك قلبه ما يتبين فيها من سمات الصديق والاخلاص ومخايل النبل والشرف، وما يستشفه من دلائل الاحساس بالجمال وحبها وعبادتها في جميع مظاهرها، وما يتوسمه من ذكاء الشاعر ويقظة الفؤاد وصدق النظر وصفاء السريرة وعلو النفس ، وتناسبها وتجاربها مع كل ما يكتنفها من مظاهر الطبيعة » .

« هذه حقيقة لا موضع فيها للشبهة ، وما ينكر أن الشعوب الآرية أذطن لمفاتيح الطبيعة وجلال النفس الانسانية وجمال الحق والفضيلة إلا كل مكابر ضعيف البصيرة ، او رجل أعماه العصبية الباطلة عن ادراك ذلك » ..

وكان « نعيمة » قد أصدر كتابه « الغربال » ، يحمل هجوماً على المدرسة التقليدية ، ودعوة الى أدب جديد . وقد كان له أثر كبير في توجيه حركة التجديد .

وكان جبران يكتب : « لكم لغتكم ولي لغتي » .

وكان الدكتور طه حسين يعيد تقييم التراث الشعري العربي ، ويدرسه وفق نظرة جديدة تنزع عنه كل ما أحيط به من إجلال وتقديس ، وينشر ذلك في سلسلة مقالات تناولت أعلام الشعر العربي القديم ، كما كان

يوجه نقدات عميقة الى شوقي وحافظ ، ويتابع انتاج الشباب من الشعراء المحدثين .

وقد كان لكل ذلك أثره البارز في تكوين الشابي الثقافي، حيث تطلع طموحه منذ اليوم الى قادة الفكر الحديث في الشرق والمهجر، ومن هناك استمد القاعدة الاولى التي قامت عليها تجربته الشعرية .

اما في تونس فقد كانت السيادة للمدرسة التقليدية، ولكن هذه السيادة لا تلبث ان تتنحى عن مكانها من الصدارة امام طموح الشباب ووثباتهم الجديدة .

وقد كان الشابي ينكر على الشعراء المعاصرين له انعدام الطابع الذاتي في شعرهم ، وفقدان الملامح المميزة لكل منهم . وكان في ذلك يصدر عن دعوته التي تعتمد على الوجدان الذاتي ، ويتأثر في ذلك بمفاهيم مدرسة الديوان والعقاد بصفة خاصة .

« ما هذا التمسك بالقديم والجمود عليه، وقد حفيت الاقلام في افهامهم معنى الشعر وموضوعه ؟ وما هذا التشابه الأليم بينهم في الروح والمترع والخيال ؟ ما لنا نجالسهم ونحدث اليهم ، فاذا لكل ملاحه وصفاته واسلوبه الخاص في فهم الاشياء ، وطريقته الفريدة في الاشارة والنظرة والحديث . ثم نفارقهم ونرجع الى أشعارهم نتلمس تلك الفروق الواضحة التي كنا نشاهدها وهم يتحدثون ، فاذا ملامح متشابهة وأساليب متقاربة وأرواح متاثلة ، كأنها منتسخة من أصل واحد نجبوء في عالم الغيب ، إلا فروقا خافتة لا تكاد تبين ، بحيث لو ألقيت الى الناقد مجموعة من شعر

هؤلاء مجردة عن أسمائهم ، لأعجزه ، مهما أجهد نفسه ، ان يردّ كل شعر الى قائله ، لأنك لا تجد للواحد منهم اسلوباً ولا روحاً ولا لوناً من ألوان يمتاز به على غيره ، كما يمتاز بلامح وجهه ونبرات صوته وطريقة فهمه وحديثه ، (*) .

« الحقيقة انهم ما زالوا بعيدين عن الحياة في فنهم ، حياة رفيعة سامية ، والاندماج فيها بكل ما لهم من روح وحس وتفكير وخيال ، حتى ينطبع شعر كل منهم بطابعه الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره » (*) .

ولقد كان اللون السائد من الشعر ، هو هذا الذي زعم له اصحابه صلة بالجديد والتجديد ، نشأت عن اتخاذه موضوعات جديدة من المناسبات والأحداث العامة ، ومتابعة المخترعات والمكتشفات . وقد كان هذا اللون من الشعر شائعاً في تونس ، كما كان شائعاً في بقية البلدان العربية . وكان الشابي يرفض هذا الاسلوب الذي يجعل وظيفة الشاعر واعظاً اجتماعياً ومعلقاً صحفياً : « وإن ارتفعوا فائماً ليخاطبوا الشعب بذلك الشعر الاجتماعي على طريقة وعّاظ المنابر وأساليب كتاب الصحف . ويا ليتهم يعلمون أن للشعب روحاً كأرواح الاطفال ، وأقداماً كأقدام الجبابرة . وإن انشودة تغني فتنة الدنيا وجهال الوجود ، لأجدي على روحه وأعود عليه من ذلك الوعظ الفاتر والتعاليم الجامدة ، وكل تلك الأشعار المقفرة الخالية من روح الفن وحرارة الحياة ، التي ملأوا بها سمعه وأثقلوا بها قلبه المسكين » (*) .

(*) من النصوص النظرية للشابي — آثار الشابي وصداه في الشرق .

ونتبين في هذا الكلام أثر الآراء التي ظهر بها الاستاذ العقاد ، والتي ضمنها كتبه ومقالاته العديدة التي اطلع عليها الشابي ، وفي مقدمتها كتاب « ساعات بين الكتب » ، الذي قرأه الشابي وأعجب به ، واستوقفته منه الآراء المتصلة بتصحيح مفهوم الشعر . وقد تضمن هذا الكتاب عدة فصول في دراسة الشعر بصر ، وهي من الفصول البارزة المحددة للاتجاهات النقدية عند هذا الرائد الكبير .

وعند العقاد يجب ان تقف، فنطيل الوقوف. فقد كان العقاد شخصية فكرية مؤثرة في توجيه الشابي الفكري، وفي تحديد معالم التجربة الشعرية لديه . ومن السهل ان نكتشف هذا التأثير فيما كتبه الشابي حول الخيال الشعري عند العرب ، وفي هذه الآراء التي نثرها حول الشعر في بيئته التونسية .

ومن الواضح ان الشابي كان يعجب بالعقاد اعجاباً عميقاً لا نظير له ، وكان يتابع ما يكتبه من مقالات عميقة في تصحيح مفهوم الشعر وتثبيت دعائم المدرسة التي يشترك في زعامتها مع المازني وعبد الرحمن شكري . وقد التقت حينذاك مدرسة الديوان بمدرسة المهجر ، على تصحيح معنى الشعر ورسالته . وكان الشابي قد تفتح ذهنه على القضايا التي كانت تثيرها في صراعها مع شعراء الجيل من أتباع المدرسة التقليدية . وقد استفاد منها كثيراً في تكوين نظريته وأفكاره الأدبية ، التي حرّكت تمرّده فيما بعد ، على المدرسة التقليدية في بلاده .

وبشيء من البحث والاستقصاء ، نستطيع ان نردّ كثيراً من الآراء التي عالجها الشابي في مقالاته النقدية ، الى العقاد ومدرسته .

١ - نلاحظ ان النظرية التي تقوم عليها محاضرة الشابي « الخيال الشعري عند العرب » ، قد استمدّها الشابي من قراءاته للعقاد والمازني .

ونحن نلتقي بأصول هذه الفكرة فيما كان يكتبه العقاد ، وفي مقدمة كتبها لديوان « عبد الرحمن شكري » . ذكر : « ان الآريين أقوام خيال نشأوا في أقطار طبيعتها هائلة ، وحيواناتها خفيفة ، ومناظرها ضخمة رهيبة .. فاتسع مجال الوهم ، وكبر في أذهانهم جلال القوى الطبيعية . ومن عادة الذعر ان يثير الخيالات في الذهن ويجسم له الوهم ، فيصبح شديد التصوّر ، قوي التشخيص لما هو مجرد عن التشخيص والأشباح .

« والساميون أقوام نشأوا في بلاد ضاحية ليس حولهم ما يخيفهم ويذعرهم ، فقويت حواسهم ، وضعف خيالهم . ومن ثم كان الآريون أقدر في شعرهم على وصف سرّات النفوس ، وكان الساميون أقدر على ظواهر الأشياء ، وذلك لأن مرجع الاول الى الاحساس الباطن ، ومرجع هذا الى الحس الظاهر . السامي يشبّه الانسان بالبدر ، ولكن الآري يزيد انه يمثل البدر حياة كحياة الانسان ، ويروي عنه نوادر الحب والمغازلة والانتقام كأنه بعض الأحياء ، وهذا لامراء ، أجمع لمعاني الشعر ، لأنه يمد من وشائج التعاطف ، ويولد بين الانسان ومظاهر الطبيعة ودأ واثتناساً يحطّها الشعر السامي ، ليس وقفاً على الأحياء ، بل على الناس دون سائر الأحياء .

« وهذا الفرق بين الآري والسامي في التصوير ، هو السبب في اتساع الميثولوجيا عند الآريين وضيقتها عند الساميين ، فليست الميثولوجيا إلا لباس قوى الطبيعة وظواهرها قوى الحياة ، ونسبة أعمال اليها تشبه أعمال الأحياء . وتلك طبيعة الآريين ، فانهم ، كما قلنا ، قد امتازوا بقوة التشخيص والخيال على الساميين » ..

وكان المازني يؤكد هذه الآراء في دراساته على النحو الذي تقدم .

٢ - كان الشابى ينكر الجمود ، ويدعو الى الطابع الذاتي ، وينمي على شعراء المدرسة التقليدية (التشابه الأليم بينهم في الروح والمزج والخيال) . وهو في ذلك يلتقي بالاستاذ العقاد ، ويستفيد منه فيما أثبتته من آراء حول الشعر في مصر حين يقول :

« لم هذا التشابه المشؤوم بين الشعراء المصريين ، الذي يخيل اليك أنهم كلهم خلقة واحدة صُفَّت في قوالب يميزها الطول والعرض ، ولا يميزها عرض من أعراض النفوس أو سر من أسرار الحياة ؟ . ولم هذا الضيق الذي يجمعهم كلهم في حظيرة واحدة تحويها النفس العادية بمخاديفها وتفتأ زمانها على سمة لا يعترها اختلاف التكوين ولا تمايز الأوضاع والأشكال . يصفون الربيع جميعاً ، فلا هذا يميز بإدراك الظلال والألوان ، ولا ذاك يميز بطرب الألحان والأصدا ، ولا غير هذا ولا ذاك يميز باستكناه الخفايا واصطياد الأطياف والأرواح ، ولا غير هؤلاء يميز بأشواق الهوى ونزعات الشعور وخفقات الاحساس ، وأشباه هذه المزايا التي يشعلها الربيع ويعطي كل شاعر منها بمقدار ، وانما هم جميعاً في تشبيه الورود

بالحدود ، والبلابل بالقيان ، والأزهار بالأعطار ، وما الى ذلك من الصيغ المحفوظة ، والصفات المعهودة ، والريعيات التي لا لون فيها ولا صدى ولا حس ولا .. ربيع ؟ ..

« لم هذا ؟ لم لا يكون التمايز بين شعرائنا كما يكون بين شعراء الأمم الشاعرة ؟ لم لا نرى في كلامهم سعة للكون ولا عمقاً للحياة ؟ لم هذا الضيق الحيواني الذي يزري بشرف الانسانية وينزل مقام الاحساس والادراك ؟ ».

٣ - والشابي لا يقرّ اعتزاز العرب بأدبهم والنظر اليه على انه أرفع الآداب العالمية . ولست أشك في انه استفاد من نقداً العقاد في هذا السبيل ، فقد كان الاستاذ العقاد يقول :

« تقديم الشعر العربي لأنه عربي عقيدة ما كان للشك اليها من سبيل . وتقديم الشعر الجاهلي على كل شعر لأنه أمعن في العربية وأعرق في القدم ، وهو كبرى فضائل القبائل البدوية التي تؤمن بالنسب والوراثة ايمانها بالأصنام والأوثان ، وهو لازمة تلك العقيدة ونتيجتها المنطقية في أذهان طلاب الأدب القديم ، ولكننا نحن اليوم بعيدون عن هذا المذهب : لا نشعر له بقوة ولا نتوجس منه شراً ، ولسنا نحس من فلوله المشتتة ببقية نخاف لها قوة ونخشى لها عزيمة . فليس الشعر اليوم خاصة عربية ، ولكنه خاصة انسانية ؛ وليست البلاغة اليوم مزية لغوية ، ولكنها مزية نفسية . وهذه عقيدة مفروغ منها ، قلّ ان يماري فيها من يُحسب له رأي ويُسمع عنه كلام .. ».

٤ - عندما كتب الشابي ، مندداً بالشعر الاجتماعي الذي يُنظم على

طريقة وعاظ المنابر وأساليب كتاب الصحف قائلا : « ان للشعب روحاً
كأرواح الاطفال وأقداماً كأقدام الجبابة ، وان انشودة تغني فتنة الدنيا
وجمال الوجود لأجدي على روحه وأعود عليه من ذلك الوعظ الفاتر
والتعاليم الجامدة، وكل تلك الأشعار المقفرة الخالية من روح الفن وحرارة
الحياة التي ملأوا بها سمعه وأثقلوا بها قلبه المسكين » .

كانت تتمثل امامه هذه الكلمات التي أكدها العقاد في اكثر من مناسبة:

« وهات لنا الشاعر الذي ينظم قصيدة واحدة يحبب بها الزهرة الى
المصريين ، وأنا الزعيم لك بأكبر المنافع الوطنية ، وأصدق النهضات ،
وأهنا مسرات المعيشة ومباهج الحياة. فان أمة تحب الزهرة، تحب الحداث
وتحب التنظيم والتنسيق، وتحب النظافة والجمال وتحب العمارة والاصلاح،
ولا تطيق ان تعيش في الفاقة والجهل والصغار . وهات لنا الشاعر الذي
يعلمنا الغزل الجميل ، وأنا الزعيم لك بأمة من الرجال الكرماء والنساء
الكرائم والأبناء النجباء .. يدرجون في حجر العطف والذوق والصحة.
لأن الشاعر الذي يعرف كيف ينظم الغزل ، يعرف كيف يقوم المرأة
بقيمتها في الأمة ، وكيف يهذب البيوت ويشترع القوانين والدساتير . بل
هات لنا الشاعر الذي يعلمنا اللهو والطرب ، وأنا الزعيم لك بأمة تعيش
عيش الأدميين ، ولا تسخر تسخير النعام وتعمل ليلها ونهارها للقوت
الحيواني ، فالشعر شيء يتصل بالانسان من حيث هو كائن حي ، لا من
حيث هو ابن وطن او ابن جامعة اخرى من لغة او عقيدة » ..

ولعل من أبرز ما تميزت به مدرسة الديوان الدعوة الى وحدة القصيدة

كما علمت المدرسة المهجرية على تعميق هذا المفهوم ، وخاصة عن طريق
الكتابات النقدية للاستاذ « نعيمة » . ومن هنا تأثر الشابي بهذا المفهوم
وكتب يقول : « ان القصيدة العربية لا تدور على محور واحد تحيط به
من جميع النواحي ، وإنما هي كون صغير تُحشر فيه الأفكار حشراً ،
وترصّ فيه المعاني رصّاً .. »

والحقيقة ، أن العلاقة بين الشابي والعقاد كانت علاقة عميقة ذات أثر
واضح في تكوين اتجاهه الفكري وتحديد معالم تجربته الشعرية . رأيناه
يقراً ما يقع من كتبه ودراساته في اعجاب كبير . رأيناه يتعصب له ضد
المرحوم الرافعي ، وينعت روح الرافعي بأنها « مستثقلة مرذولة ، واسلوبه
متكلف مجوج » . وهذا لا يصدر الا عن نفس امتلات اعجاباً وتقديراً
للعقاد ، الى الحد الذي لم تطق ان يتعرض لمثل هذا النقد .

ولا غرابة في ان يعجب الشابي بالعقاد ، فلقد كان عالماً من أعلام
الادب الحديث ورائداً كبيراً من رواده البارزين ، وإنما الغريب حقاً ان
يمضي الشابي مع هذا الاعجاب الى الحد الذي يبدي فيه اعجاباً بشعر العقاد ،
فيكتب لصديقه « الحليوي » عن ديوان « وحي الاربعين » : « يقع في
نحو التسعمائة بيت ، في شكل جميل صغير ، وطبع متقن وورق مختار ،
وفيه ما شئت من فلسفة ناضجة في الحياة والناس ، وغزل مطلول ، ووصف
شامل نفاذ وسخر لاذع عميق ؛ أما اسلوبه فهو أرقى من اسلوب أشعاره
الماضية . ولا غرو ، فهو شعر العقاد نظمه حوالي العام الاربعين من سني

حياته ، وهذا وجه التسمية . واني أرجو ألا يفوتك اقتناؤه ،^(*) .

ولكن هذا الرأي لا يلقي تأييداً من صديقه الأديب الحليوي الذي يعجب هو الآخر بالعقاد كاتباً ، ولكنه لا يقر له بالشاعرية : « رأي المختصر فيه انه يعجب الفكر ويدعو الى التأمل والتفكير ، ولكنه لا يثير العاطفة او يحرك الشعور . وقد ساءني حرص العقاد على نشر كل شعره حتى الضعيف منه وحتى البيتين والثلاثة . فقد تخطر لأحدنا خواطر يمكنه ان يضمنها بيتين من الشعر ، ولكنه يأنف من ذلك ويأبى ان يكون نفسه قليل الامتداد . والحق ان العقاد أراد ان يكون شاعراً ، فكانه نظم بالارادة لا بالخافز النفسي الذي يدفعه الى قول الشعر ، فالشعر الحق يجب ان ينبع من النفس كما يتفجر الماء من المنبع رغم ارادة الصخور المعارضة .. »

هذا رأي أديب لا ينكر على العقاد فضله على الادب العربي ، ويعترف له بمكانته ككاتب كبير ، ولكنه لا يذهب مع الحماسة حتى يتخلى عن مقاييسه النقدية في تقييم الشعر ، وكأنما أدرك الشابي صواب هذه النظرة ، فانصرف عن مناقشة هذا الرأي في رده على رسالة الحليوي ، ولجأ الى مناقشة موضوع جانبي منها يتعلق بنظم البيت او البيتين . فلننظر كيف يعلق على هذه الرسالة ، فان لذلك أهمية لا يمكن اغفالها :

« اذا كان لي ان أنكر عليك هذا الرأي ، فهو زرايتك على العقاد ونظمه البيت والبيتين ، وقولك ان النفس تأنف من ذلك وتأبى ان يكون نفسها غير ممتد .

(*) من رسائل الشابي .

« فالعبرة يا صديقي عندي، إنما هي بنوع الشعر وعلو عنصره وكرم معدنه ، لا بكميته وكثرته . وكَم من مطولات ممدودة النفس لا يعثر فيها المرء على ما يسكر القلب أو يغذي الفكر ؛ ثم ألا ترى معي أن قولك أن النفس تأبى ألا تكون ممتدة النفس هو ضرب من تحكم الإرادة الذي تنعاه على العقاد في شعره ؟ أما أنا فلا أفهم من الشعر إلا أنه فيض الحياة في أيقظ ساعاتها ، وأحفلها بنوازع الفكر والشعور . وكما أن السحابة العابرة قد تسيل السيول وقد تسكب القطرات ، كذلك نفس الشاعر » (*) .

ونلتقي مرة أخرى اعجاب الشابي بالعقاد في هذه الفقرة الهامة ، وهي وحدها تكفي للدلالة على التلمذة والتأثر والانفتاح على الآراء ، التي كان يكتبها وينادي بها :

« اطلعت على كتاب « ساعات بين الكتب » ، وتملت بما فيه من صور الفن ومثل الحياة مما لا ينتج إلا عن ذهن جبار ولود وعبقريّة نادرة خارقة . أما لغة الكتاب واسلوبه ، فهو الاسلوب القيم الجميل الذي لم يكتب العقاد فيما سلف خيراً منه ، على رأيي طبعاً » .

وقد كتب العقاد فيما كتب عن شكسبير كتابة ، لو علم شكسبير أنها ستكتب عنه لمجد نفسه ألف مرة . كتب عنه كتابة لا أحسب أنها كتبت عن بشري من قبل . فقد صور العقاد فيها شكسبير بصورة إلهية عليها جلال الألوهية في جدّها ولعبها ، في حزنها وفرحها ، في بؤسها وسعادتها .

(*) من رسائل الشابي .

وماذا يمكنني ان أقول؟.. ان العقاد جعل من شكسبير إلهاً صغيراً بشرياً ، يخلق في دنياء الصغيرة صوراً حية كاملة من صور الانسانية المتباينة ، صوراً ملأى بمعاني الحياة اللاعبة العابثة والجادة العابسة ، والشاعرة المفكرة والمجنونة التائهة ^(*) .

ومن المهم ان نشير هنا الى هذا الكتاب ، فقد ضمّ بضعة فصول نقدية هامة ، لعل أهمها وأكثرها ارتباطاً بالناحية الشعرية ، تلك الفصول او المقالات التي كتبها حول الشعر في مصر ، وتضمنت كثيراً من آرائه الاساسية في تقييم الشعر وفق النظرة الجديدة التي كان ينادي بها هو ومدرسته ، وهي من أعمق الدراسات التي كتبها الاستاذ العقاد ، وكان لها تأثير بالغ في توجيه النقد الحديث والشعر الحديث. ثم كلمات عن الصحيح والزائف من الشعر ، والنثر والشعر ، وأبيات من الشعر ، وكلمة عن الاستاذ الزهاوي ، ودراسات عن شكسبير وتوماس هاردي ، والشعر العربي والشعر الانجليزي ، ومع المتنبي والحقائق الشعرية .

ولست أشك في أن كثيراً من هذه الآراء التي تناوّلها العقاد في هذا الكتاب ، قد دخلت كموامل أساسية في تجربة الشابي الشعرية ، وكان لها أثر كبير في نفسه تدل عليه حماسته التي تعبر عنها هذه المقتطفات من رسائله. ولا يمكن لباحث ان يغفل هذا الجانب من تكوين الشابي الثقافي ، فقد كان العقاد أحد الأعلام الذين أخذ عنهم واستفاد منهم ، وحمل لهم في نفسه كل تقدير واحترام .

(*) من رسائل الشابي .

شارك الاستاذ نعيمة في صياغة العوامل التي قامت عليها تجربة الشابي. وقد كان الشابي على صلة قوية بالاتجاهات الادبية التي تمثلت في مدرسة المهجر وجماعة الرابطة القلمية . ولقد كان الناقد الموجّه والمعبّر عن وجهة نظرها وقيمها الجديدة التي تدعو اليها، هو الاستاذ نعيمة، وخاصة في كتابه « الغريال » . ولقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في توجيه الحركة الادبية ، وتناولته أقلام كثيرة بالدراسة والتعليق ، ورحب به دعاة التجديد في الشرق ، إذ وجدوا فيه سنداً لدعوتهم ورفيقاً في رحلتهم الجديدة . وما من شك في أن الشابي قد قرأ شيئاً من هذه الآراء ، كما قرأ كثيراً من النماذج الشعرية الجديدة التي قدمتها هذه المدرسة ، ووجد فيها ما كان يبحث عنه ، من تعبير عن الذات ووضوح الشخصية والبعد عن الصناعة اللفظية ، الى التعبير عن النفس الانسانية وتجربتها في الحياة . ولقد خاطب وجدانه هذا الادب ، وتمثل تجربته وسار على دربه . ولعل أبرز من أثر في اتجاهه من أدباء المهجر : نعيمة وجبران .

أما نعيمة فأننا نكتشف أثره في تحديد الشابي لمفهوم الشعر ، وهو تحديد يقترب او يستمد كثيراً من مقوماته من التحديد الذي وضعه نعيمة في كتابه « الغريال » :

« ان جهلنا معنى الشعر الحقيقي ومنزلته في عالم الادب ، قد أوصلنا الى ما نحن فيه الآن من وفرة النظامين وقلة الشعراء ، وغنانا بالقصائد وفقرنا بالشعر . ان الذين حاولوا ان يعرفوا الشعر بعبارة او اكثر لعدد

كبير ، لكن لم يكن بينهم من اهتمدى الى تعريف يشمل الشعر من كل وجوهه ، لأن الشعر غير محدود .

« ولو ألقينا نظرة سطحية على هذه التعاريف لوجدناها ، مع كل ما فيها من الاختلاف الظاهر في التعبير ، تدور حول نقطتين جوهريتين : قسم منها ينظر الى الشعر من جهة تركيبه وتنسيق عباراته وأوزانه وقوافيه ، والآخر يرى في الشعر قوة حيوية ، قوة مبدعة ، قوة مندفة دائماً الى الأمام . والشعر في الحقيقة ، ليس الاول وحده ، ولا الثاني فقط ، بل هو كلاهما . الشعر هو غلبة النور على الظلمة ، والحق على الباطل . هو ترنيمة البلبل ونوح الورق وخرير الجدول وقصف الرعد . هو ابتسامة الطفل ودمعة التكللى وتورّد وجنة العذراء وتجعد وجه الشيخ . هو جمال البقاء وبقاء الجمال . الشعر لذة التمتع بالحياة ، والعرشة أمام وجه الموت . هو الحب والبغض والنعيم والشقاء . هو صرخة البائس وقهقهة السكران ولهفة الضعيف وعجب القوي . الشعر ميل جارف وحنين دائم الى ارض لم نعرفها ولن نعرفها . هو انجذاب أبدي لمغائقة الكون بأسره ، والاتحاد مع كل ما في الكون من جماد ونبات وحيوان . هو الذات الروحية تتمدد حتى تلامس أطرافها أطراف الذات العالمية . وبالأجمال ، فالشعر هو الحياة باكية وضاحكة ، وناطقة وصامتة ، مولولة ومهللة ، وشاكية وباسمة ، ومقبلة ومدبرة .. »

واني لأحس أثرًا من قصيدة النهر المتجمد ليخائيل نعيمة ، ينساب

في هذا النغم الذي تميزت به قصيدة الشابي « جدول الحب بين الأمس واليوم » وقصيدة « قلب الام » :

يا نهر ، هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخريف ؟
 أم قد هرمت وخار عزمك ، فانتثيت عن المسير ؟
 بالامس كنت مرغماً ، بين الحداثق والزهور
 تتلو على الدنيا وما فيها أحاديث الدهور
 بالامس كنت تسير لا تخشى الموانع في الطريق
 واليوم قد هبطت عليك سكينه اللحد العميق
 بالامس كنت اذا أتيتك باكياً ، سليتني
 واليوم صرت اذا أتيتك ضاحكاً ، أبكيتني
 بالامس كنت اذا سمعت تنهدي وتوجعي
 تبكي ، وها أبكي أنا وحدي ، ولا تبكي معي
 ما هذه الأكفان ؟ أم هذي قيود من جليد
 قد كبّلتك وذلّلتك بها يد البرد الشديد
 ها حولك الصفصاف لا ورق عليه ولا جمال
 يجثو كثيراً كلما مرّت به ريح الشمال
 والخور يندب فوق رأسك نائراً أغصانه
 لا يسرح الحسون فيه مردداً ألحانه
 تأتيه أسراب من الغربان تنعق في الفضاء
 فكانها ترثي شباباً من حياتك قد مضى

وكأنها بنعيمها عند الصباح وفي المسا
 جوق يشيع جسمك الصافي الى دار البقا
 لكن سينصرف الشتا ، وتعود أيام الربيع
 فتفك جسمك من عقال مكنته يد الضيق
 وتكرج موجتك النقية حرّة نحو البحار
 حبلج بأسرار الدجى ، ثلج بأنوار النهار
 وتعود تبسم ، إذ يلاطف وجهك الصافي النسيم
 وتعود تسبح في مياهك أنجم الليل البهيم
 والبدر يبسط من سماه عليك سترآ من لجين
 والشمس تستر بالأزاهر منكبيك العارين
 والخور ينسى ما اعتراه من المصائب والحن
 ويعود يشمخ أنفه ، ويمس مخضر الفن
 وتعود للصفصاف ، بعد الشيب ، أيام الشباب
 فيغرد الحسون فوق غصونه ، بدل الغراب
 قد كان لي ، يا نهر ، قلب ضاحك مثل المروج
 حرّ كقلبك ، فيه أهواء وآمال تموج
 قد كان يضحى غير ما يسي ، ولا يشكو الملل
 واليوم قد جمدت كوجهك فيه أمواج الأمل
 فتساوت الأيام فيه ، صباحها ومساؤها
 وتوازنت فيه الحياة ، نعيمها وشقاؤها

سيان فيه غدا الربيع مع الخريف ، او الشتاء
 سيان نوح البائسين ، وضحك أبنساء الصفاء
 نبذته ضوضاء الحياة ، قال عنها وانفرد
 وغدا جهاداً ، لا يحنُّ ولا يميل الى أحد
 وغدا غريباً بين قوم ، كان قبلاً منهم
 وغدوت بين الناس لغزاً فيه لغز مبهم
 يا نهر ، ذا قلبي ، أراه كما أراك ، مكبلاً
 والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو .. لا

ويقول الشابي من قصيدة « جدول الحب بين الامس واليوم » :

بالامس قد كانت حياقي كالسماء الباسمه
 واليوم قد أمست كاعماق الكهوف الواجمه
 قد كان لي ما بين أحلامي الجميلة جدول
 يجري به ماء المحبة طاهراً ، يتسلسل
 تسعى به الأمواج ، باسمه كالأحلام الصبا
 بيضاء ناصعة ضحوكاً ، مثل أزهار الربى
 ميامة كعرائس الفردوس بين حقوله
 تتلو أناشيد المنى ، في مدّة وقفوله
 هو جدول الحب الذي قد كان في قلبي الخضل
 برأشف الاحلام منطلقاً ، يسير على مهل
 يتلو على سمعي أغاريد الحياة الطاهره

ويشير في قلبي أناشيد الخلود الساحره
تقف العذارى الخالدات ، عرائس الشعر البديع
في ضفتيه ، مردّدات نغمة الحلم الوديّع
يلمس من قيثاره الاحلام ، أوتار الغزل
فتفيض الحان الصباة عذبة مثل الأمل
وتطير بالبسّات والأنغام ، أجنحة الصدى
في ذلك الأفق الجميل ، وذلك النفح الرضا
وهناك حيث تعانق البسّات أنغام الغزل
يتأيل الحلم الجميل كبسمة القلب الثمل

أما أثر جبران في تجربة الشابي الشعرية ، فهو واضح كل الوضوح ،
ولن نحتاج الى كبير عناء في اكتشافه. ولقد انصرف الشابي بقوة الى أدب
جبران ، الذي عنكف عليه يقرأه ويستعيد قراءته في إكبار وإعجاب ،
بما كان يحفل به من صور خيالية وعاطفة رقيقة. لقد أَرْضَى جبران أكثر
من جانب، في نفس الشابي ، فقد كان يمثل لديه نموذج الكاتب الرومانسي
ونموذج المتمرد الرومانسي ، وان كثيراً من آراء جبران تطل علينا من
خلال شعر الشابي . وليس من الصواب ان يقال : « ان جبران ليس
شاعراً حتى يتأثر به الشابي » . هذا خطأ في الفهم والتقدير ، فكأنما التأثير
الفكري انما يتم بين الشعراء ، فلا يؤثر الشاعر إلا في شاعر ، ولا يؤثر
النثر إلا في نثر . وهذا الرأي ، على ما فيه من مغالطة واضحة ، يتجاهل

وحدة العمل الادبي التي تجعل مختلف النشاطات الادبية لونا من التعبير عن الذات .

وقد تحدثنا خلال الكتاب، عن هذا التأثير الذي يشمل الفكرة والمعالجة والاسلوب ، ونقف اليوم امام دليل آخر على هذا التأثير الذي تحمله الينا هذه الكلمات التي رثى بها الشابي جبران ، وهي واضحة في الدلالة على الحب والاعجاب الذي كان ينطوي عليه الشابي نحو جبران ، وتقديره له، وتلمذته عليه تلمذة طويلة وعميقة :

« ففكر جبران فكانت أفكاره عميقة كاللوت ، جميلة كالحياء . فكر فيلسوف وتكلم كشاعر ، فكان لأدبه رقة الشعر وجلال الفلسفة ، وكان له فن غريب يتعاقب في ظله الخيال والجموح والحقيقة السافرة .

« وكان جبران ثورة في الادب العربي ، ولكنها ثورة حية ، جانب البناء فيها اكثر من جانب الهدم والتخريب . ثورة أيقظت الناس من سبات الدهور ، وأرتهم آفاقاً كانت مجهولة ، وأسماهم هزيم الحياة ، وعلمتهم أن روح الشاعر كنز لا يفنى وثورة لا تبديد ، وان في هذا العالم شيئاً آخر غير الامس البعيد.

« ويمتاز أدب جبران بميزتين هما ، في نظري ، دعامتاه مجده الذي لا يزول . الميزة الاولى : الجدة والطرافة في اسلوبه ومعانيه وفي روحه ، فانك لتقرأ أدبه فاذا به اسلوب موسيقي متجاوب النبرات، ومعان خيالية رائعة ، وروح متاجبة ترفرف بين السطور . الميزة الثانية : الحياة التي لا بد ان تتحرك في صدرك حين تقرأه ، او فكرياً او خيالاً ، لا بل انها

تُكرهك على ان تفكر او تشعر او تتخيل ؛ ومن لا يحركه أدب جبران ولا يثير شعوره ، انها هو روح مقفرة وقلب مهديم .

» وسيقول الناس عن ثورة جبران على قواعد اللغة العربية انها مخطئة احيانا ، ولكن ذلك لا يحطّ من قيمة جبران ، فما هي إلا هفوة تفتقرها له تلك الثورة المعنوية الخالدة التي خلفها جبران للعربية . وستمّر الدهور وتتعاقب الأجيال وينسى الناس عن جبران كل شيء ، ولكن لا يستطيعون ان ينسوا هاته الحقيقة .

» لقد كانت جبران عاطفة مشبوبة ، وخيالاً جامعاً ، وفكراً قوياً يجوب أعماق الحياة .

» وسيقول الصديق لصديقه ، وهو يحادثه في الليلة القمرية ، تحت ظلال النخيل او على شاطئ اللجة الداوية : حقاً لقد كان جبران رسول الحق والحب والجمال « (*) .

أما مدرسة أبولو ، او جماعة أبولو ، فقد كان الشابي من أعلامها ، ولم يكن من تلاميذها . التقى بها بعد ان تكونت له شخصية متميزة متفردة ، وفتح له أدبه الرفيع أبوابها دون وسيط او معين ، فلم تتردد المجلة في ضمه الى اسرتها ، بعدما اكتشفت من قيمته الادبية ما يزيد في تدعيم المجلة . ولقد كانت المجلة تسعى الى ان تمثل فيها جميع الفئات من البلدان العربية .

(*) توفيق بكار - (مشاركة في دراسة الشابي) - حولية الجامعة التونسية ، العدد الثاني

سنة ١٩٦٥ .

نعم ان أبولو قد ساهمت الى حد بعيد في ذبوع اسم الشابي وانتشار شهرته في الشرق ، وعرفت بأدبه . وقد كانت الشابي نفسه يتطلع الى التعريف بأدبه . وكان يحمل الطموح الى ان يكون لبلاده تونس أدب يذكر الى جانب الآداب التي تنتجها البلدان العربية الاخرى ، وكان لا يجد فرصة يفضي فيها بمثل هذا الرأي إلا اغتنمها . فقد كان يحزنه ألا يعرف الشرق شيئاً من أدب بلاده ، كما كان يحزنه ألا يندفع شباب الأدباء في بلاده الى المشاركة الواسعة في الصحف الادبية في الشرق .

نعم ان أبولو قد عرفت بالشابي ، ونقلت شعره الى مجموعة أوسع من المحيط الذي كان يعيش فيه . ولكن التقاء الشابي بأبولو كان لقاء الرفيق الذي يسير على نفس الدرب ، فقد اتصل بها وهو شاعر ، تكاملت له أدواته الشعرية . ولم تجد المجلة ، امام الروح التي يحملها ادبه وشعره ، إلا ان تفتح له صفحاتها ، تزيد من قيمتها ، وترفع من شأنها ، وتدعم المذهب الذي تحمله وتبشر به .

وقد كان الشابي يدرك أخطاء مجلة أبولو ويشعر بما كان يبدو عليها من ضعف ، ولم يكن راضياً كل الرضى عما ينشر بها ، وفي ذلك دلالة على ارتفاع مستواه عن مستوى التلميذ الذي تلهيه فرحة الظهور في صحيفة مشهورة عن الانتباه لأخطائها المذكورة :

« أرى أن بينها وبين السمو خطوتين : الاولى ان يقسو صاحبها في انتخاب ما يرد عليه ، فلا ينشر الا ما سمت روحه وشرف اسلوبه ، حتى اصبح جديراً ولو أقل من كل الجدارة ، ان يصير فناً . فاني أراه في

كثير من الاحيان ، ينشر بعض الأشعار السخيفة المبثذلة في روحها واسلوها ، بالرغم من أنه كثيراً ما يصرّح ويصرّح له بأنه يجب ان يكون قاسياً لا يعرف المجاملة او الهوادة في سبيل الحق والفن ، ولكنها خطوة أعتقد انه سيخطوها في مقتبل الايام . أما الخطوة الثانية فهي مشاركة عظماء مصر في تحريرها ، كالعقّاد والمزني وطه حسين ومن لفّ لفهم ، فان الطبقة التي تحررها هاته الايام ، خصوصاً في الناحية النثرية ، ليست من القوة في شيء .

أما موقف الشابي من شعر الدكتور ابي شادي فقد أوضحه في هذه الكلمة ، وهي واضحة في الدلالة على أن العلاقة القائمة بينهما لم تكن علاقة ثمّنة . ومن المعروف أن الدكتور أبا شادي قد طلب من الشابي ان يقدم له ديوانه « الينبوع » ، وما كان ليفعل ذلك لو لم يكن على يقين من مكانة الشابي ومن كلمته التي تخدم الديوان وصاحبه .

وكان الشابي مدركاً للعيوب الفنية في شعر ابي شادي ، ولكنه لم يملك الا ان يحامل ، وأوجز رأيه في رسالة بعث بها الى صديقه الحليوي ، يقول فيها :

« الحقيقة انني كنت لا استطيع ان أتم قصيداً لأبي شادي ، ولكنني رضت نفسي على ان أتابعه حتى ألفته فتبين لي ان الرجل في صميمه شاعر حساس يمتاز بروحانية صوفية في نظراته الى الوجود . ولكن الذي أسقط من قيمة أدبه شيئان :

١ - انه متعجل مكثار ، لا يصبر على التجويد الذي هو عمل لا بد منه للفنان المتسامي .

٢ - ان صورته الشعرية لا تبدو واضحة كاملة في شعره بحيث ترغمك على تذوقها واستمتاعها وذكرها ، بل انها لتبدو ملتانة غائمة سريعة كل السرعة كأنها صور شريط سينمائي يدور بسرعة جنونية . وهذا السبب الذي ينأى بالناس عن تذوق شعره وإدراك ما فيه من صور شعرية واحساسات عميقة ، تدل على نفس حية واعية ، ولذلك فشعره يبدو فاتراً في كثير من الاحيان ، لا يسيطر عليك ويرغمك على ان تتبعه مسحوراً دهشاً . وما أشبه شعره في نظري ، بتلك المرأة الجميلة التي يعجبك جمالها ، ولكن لا تستفرك أنوثتها القاهرة وسحرها الغالب ؛ ولعلك لو رضت نفسك على تلاوة شعره لأدركت منه ما أدركت . ذلك بجمل رأيي في الرجل وانك لتدرك بالبداهة انه لا يمكنني ان أقول هذا القول وبهاته الطريقة في مقدمة تكتب لديوانه .

ولكن من الحق ان نقول أن البيئة الادبية في مصر ، وما كان يدور فيها من مناقشات ، وما يرتفع فيها من دعوات فكرية قد ملأت خاطره ووجدانه ، وأنه كان يتابع الحركة الادبية هناك متابعة واعية عميقة ، ويصدر أحكامه عليها فتمن عن تقييم سليم وادراك كامل لمحتواها .

فالحياة الفكرية التي كانت سائدة في مصر قد أثرت في فكر الشابي وخياله ، ولا نكران في انه قد تتلمذ عليها واستفاد منها شأن أغلب الناشئين في البلدان العربية حينذاك . فقد كان لواء الزعامة الادبية معقوداً

لمصر ، وكانت ترتفع في أفقها أسماء شوقي وحافظ ومطران والعقاد وطه حسين والمازني والزيات وشعراء المدرسة الحديثة .

كان الشابي يتابع هذه الحركة ، فهو يحكم على الصحف والمجلات التي تمثلها وتنقل إليه تياراتها ، فعنده « ان الرسالة من ألزم اللوازم للأديب الذي يريد ان يتصل معنويًا بعظماء مصر في الوقت الحاضر » . ويقول عن جريدة السياسة الاسبوعية وجماعتها : « ان كبرياء مصر وفرعونيته انما تتمثل في جريدة السياسة الاسبوعية وجماعتها اكثر من كل صحيفة وفريق » . ويفضل النشر في مجلة أبولو « لأنها مجلة خلقت لخدمة الادب العربي ، بقطع النظر عن الفروق الوطنية والسياسية ، لأن جماعتها أقل فرعونية وأدمت أخلاقاً من جماعة السياسة الذين على رأسهم هيكل اول داع الى الفرعونية ومشيديا » .. وهو يشير بذلك الى الدعوة التي تحمس لها الدكتور هيكل ودعا اليها ، والتي تقوم على استيعاء التاريخ القومي المصري وتستند الى أنه « بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصال نفسي وثيق ينسأه كثيرون ، فيحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات في نظم الحكم وفي العقائد الدينية وفي اللغة ، وغير ذلك من مقومات حياة الأمم ، قد فصل بين هذه الامة الحاضرة وبين الامة المصرية القديمة فصلاً حاسماً جعلنا الى العرب او الى الرومان أقرب منا الى أولئك الذين عمروا وادي النيل في ألوف السنين التي سبقت المسيحية » . وقد أثبت ذلك في جملة مقالات ضمنها كتابه « ثورة الادب » .

ومن الواضح ان اتجاه الشابي الى الشرق يحمل دلالة على أن الواقع

الادبي في بلاده لم يشبع روحه ، وان طموحه كان موجهاً الى المشاركة في الحركة الادبية ، وكان يشعر ان قيمته الادبية انما تتأكد بما يحصل عليه من شهرة وانتشار في الشرق . وقد عمل على ان ينشر شعره في كبريات الصحف المصرية ، وشجع غيره من الأدباء التونسيين على ان يفعلوا ذلك حتى ينشئ سمعة ادبية لتونس ، التي لم يكن راضياً على واقع الادب فيها . ولا نستطيع ان ننسى ، في تحديد معالم التجربة الشعرية عند الشابي ، هذا الطموح العارم القوي الذي كان يحمله من اجل ان يكون لتونس أدب يعبر عن شخصيتها ، ويحمل مشاركتها الى العالم العربي الذي كان يجهل الكثير من انتاج هذا الجيل الذي يثله .

» ان تونس ملعونة ولن ينهض الادب الحي فيها بعد اليوم .. أكذا قضى القدر العاتب الغشوم ان لا ترفع تونس رأسها يوماً من حضيض الموت ؟ أقدّر لهاته الجيف المنتنة ان تتكلم وحدها في الفضاء الجميل ؟ ان هذا لا يطاق « .

» وأصارحك في موقف حاسم ، في تكوين الادب التونسي الحي الجديد بالخلود ، وفي تحطيم هذه الاصنام الخشبية التي تحتل مكاناً من الادب يجب ان يحتله الأحياء الذين يعرفون كيف يعلمونه في محبة الحق والقوة والجمال « .

ولا نستطيع ان ننسى أثر الصحبة في تكوين الشابي الثقافي وصياغة تجربته الشعرية ، وخاصة صداقته مع الاستاذ الحليوي ، اذ يبدو لنا انها كانت ذات أثر واضح نلمسه في :

١ - تشجيع الحليوي المستمر للشابي ، ذلك التشجيع الذي ينبثق من ايمانه بأنه ازاء موهبة شعرية ينبغي ان ترعى وتُحاط بالإكبار .

٢ - اللقاء الفكري على مفهوم واحد للأدب .

٣ - الملكة النقدية عند الحليوي كان لها أثر بليغ في توجيه الشابي ، فقد كان الحس النقدي عند الحليوي عميقاً ، وبعيداً عن الانفعالية والعاطفية . ويتضح ذلك من الحوار الذي جرى بينهما حول شعر العقاد : « ان العقاد يفكر في شعره ولا يكتب الشعر في حالات شعور ثائر ، بل هو يهتدي الى الفكرة او يوحىها له كتاب او قصيدة فيريد ان ينظمها شعراً وتم له ارادته . واذا قرأت انا ذلك الشعر أعجبني موضوعه ، وتمنيت لو تناوله شاعر عاطفي حتى يحملنا على أجنحة الخيال او يهز مشاعرنا هزاً » .

٤ - كان الحليوي على صلة مباشرة بالثقافة الفرنسية وبأدباء الرومانسية ، وكان يحدث الشابي بملخص قراءاته في هذا المجال ، فهو يكتب عن دي فيني ، ويقرأ بيروت ويدرس لامارتين . وقد كان هذا كله مما يتفق مع الجو الفكري السائد حينذاك ، ويشبع ميلاً نفسياً لديه ولدى صديقه . وعلى الجملة ، فاننا نقر هذه العبارة التي أطلقها الحليوي ، محدداً بها العلاقة بينه وبين الشابي : « انت - يعني نفسه - في هذه الرسائل تشبه سانت بييف وصديقك يشبه لامارتين » ..

وكان الشابي يحس بالنقص لعدم إلمامه بلغة اجنبية ، وقد ظن الكثيرون الذين اطلعوا على شعره ، انه متأثر تأثراً مباشراً بالثقافة الفرنسية ، وقد وقع ابو شادي في هذا الوهم ، فطلب اليه ان يمده ببعض

الابحاث والدراسات ، وعلى الخصوص في الادب الفرنسي . « فصاحبنا يعتقد أنني أعرف الادب الاجنبي ، ولذلك يطلب مني هذا الطلب . وانه ليحز في قلبي يا صديقي ، ويديمي نفسي ان أعلم انني عاجز .. عاجز .. عاجز . انني لا استطيع ان أطير في عالم الادب إلا بجناح واحد منتوف » . ولعل هذا الشعور بالعجز هو الذي يفسر لنا إقباله الشديد على الادب الغربي المترجم ، واحتذائه والتأثر به على نحو لا يتحقق للذين يتصلون به اتصالاً مباشراً . وقد مكنه هذا الشوق الذي يحسه نحو هذه الآداب الاجنبية ، ان يتلقاها بعمق ، ويتأثر بها في قوة لا نراها تتحقق للذين يقرأونها في لغاتها الاصلية مباشرة ، حتى يعوض على نفسه ما فاته منها ، وحتى لا يكون متخلفاً عن السير في موكب التجديد الذي يطمح اليه . كانت أسماء أدباء الرومانطيقية الفرنسية والانجليزية هي التي تسيطر على الحياة الفكرية . كان الحديث حول ييرون وشللي وودزورث ولامارتين ودي موسيه ودي فيني . وكانت هذه القصائد التي تُترجم ، والدراسات التي تُكتب ، تصوّر هؤلاء الأدباء على أنهم المثل الأعلى والصورة الادبية التي يجب ان تُحتذى . وقد تأثر الشابي كأغلب شباب الجيل ، بهذه القراءات الرومانسية التي أشبعت ما في نفسه من شوق وطموح الى التعبير عن الذات . فقرأ « رفايل » و « آلام فرثر » من ترجمة الزيات ، وقرأ « ماجدولين » و « بول فرجينى » من ترجمة المنفلوطي ، وقرأ كثيراً من الاشعار المترجمة والدراسات النقدية التي تتعرض لهؤلاء الأدباء بالنقد والتقييم . ولقد استفاد حتماً من هذه القراءات ودخلت ضمن العوامل الفعالة في تجربته الشعرية .

هذه هي العوامل التي اشتركت في تكوين تجربة الشابي وتحديد رأيه من قضايا الشعر في عصره وفي بلاده . على أن هذه العوامل كلها لا تنفي ما تميز به الشابي من طابع ذاتي قوي وأصالة واضحة ، برزت مستقلة عن كل تأثير ، وبلغ من قوتها وأصالتها وعمقها أن كانت مؤثرة فيمن جاء بعده من الشعراء، وسوف يظل الشابي روحاً خالداً يملأ الوجدان العربي بنغبات حية لا تزول ، ومرجع هذه القوة والأصالة شعوره بذاته، ويقظة احساسه : « اذا تيقظ الاحساس في قلب الشاعر الفنان ، بتعبير أشمل ، كان له بالرغم عنه ، استقلاله الذاتي الذي يشعره بأنه قوة حية منتجة من المستحيل ان تندمج في سواها ، وان لا تشق لنفسها سبيلاً بكرة للمجد والحياة، وكانت له كرامة ترفع عن ان تذوب في غيرها او تنحط الى درك التقليد . وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج في قلب الحياة ، وطائراً سماوياً يتغنى بأفكار البشر وأحلامهم » ..

الشَّابِيُّ نَاقِلًا وَمَنْظُرًا

أقلت أزمة الضمير العربي الحديث عبثاً ثقيلاً على الشاعر العربي المعاصر ، منذ رفع راية التجديد ، وشغل بإعادة تنظيم الواقع العربي ، مما دفع به ، في كثير من الحالات الى الخروج عن حدود الوظيفة التي اصططلحت الأجيال على حصره في نطاقها . وربما كانت مفاجآت التجديد ، ومغامراته ، وما يقترن به من خروج عن المألوف ، وصدم وتهديم وبناء وما يلحق بذلك من مشكلات عديدة وقضايا مختلفة هي السبب في رصدنا لظاهرة بروز الشاعر الناقد ، والشاعر المفسر ، والشاعر المنظر ، فلم يعد الشاعر الحديث يكتفي بصياغة الشعر وارسال القصائد ، ثم ينام عنها ،

❦ ألقى هذا البحث في المهرجان الذي اقامه اتحاد الكتاب التونسيين في ديسمبر ١٩٧٤ بمناسبة مرور اربعين سنة على وفاة الشاعر .

نومة المتنبي عن شوارده ليسهر الخلق من جرائها ويختصمون . وقد كان الخصام حول الشعر القديم هينا لنا يسيرا يقتصر على قضايا لغوية وبلاغية . اما الخصام حول الجديد من الشعر فقد بلغ من العنف ما جعل الشاعر يخرج عن حدود وظيفته ليحمل ديوانا بيده يبني به هذا الجديد الذي يريده ، ونقدا وتفسيرا بيد أخرى ينظر به هذا الجديد ويدافع عنه ويبرره ويفسره .

وقليل هم النقاد الذين استطاعوا ان يسايروا الشاعر الحديث في مغامراته ومشكلاته . مما جعله ينهض بهذا العبء وحده ، دون مساعد ، وقد زاد ذلك من توتره وعمق احساسه بالغربة واللاتفاهم والاتواصل .

وقد كانت مشكلات الشعر الحديث من العمق والتعدد والتنوع بحيث انها اصبحت اضخم من ان تستوعبها بيسر وسهولة وعفوية نفسية القارئ المتلقي وكان لا بد ان يشعر الشاعر بالعجز عن الايصال فيسعى الى مد يد العون للقارئ ليساعده على فتح مغاليق نفسه والقاء الاضواء على عالمه الخاص ويرسخ القواعد التي يتبناها وياخذ بها .

ومن هنا قرأنا « حياتي في الشعر » لصلاح عبد الصبور و « تجربتي مع الشعر » لعبد الوهاب البياتي و « زمن الشعر » لادونيس وغيرها من

الكتابات المتفرقة التي تشكل نوعاً من البيان الذي يحدد المفاهيم ويوضح الغاية ويبرر الموقف والتصرف .

وما من شك في أن هذه الأعمال كانت جيدة ، شكلت في الواقع نوعاً من المعاناة الجديدة في البحث عن نظرية شاملة تفسر الشعر الحديث وتبرره وتدافع عنه ، وافادت في كثير من الحالات في القاء الضوء عليه .

وقد تناولت هذه الاعمال مفهوم الشعر ذاته وعلاقته بالقارئ ، ومشكلة التراث والحداثة ، ومشكلة الشعر والفكر والفلسفة ، والشعر واللغة والتواصل وقضية الرمز والاسطورة الى غير ذلك من القضايا التي أصبح يطالونها بها الشعراء اكثر مما يطالعوننا باشعارهم المنظومة في اطار هذه المفاهيم . والخطر كل الخطر ان تغطي هذه النزعة النظرية، بكل ما يقترب منها من تحديد ووضوح فتتحول الى نوع من التعقيل الذي يقضي على نوازع الفطرة والعفوية لدى الشاعر ويحوّله الى مفكر او صانع يحترف يشتغل وفق تصميمات وقوالب فكرية محددة .

هذه لحظة تهديدية ، اردت ان انتهي منها الى القول ، اننا اذا كنا نقرأ اليوم عن شعراء جدد يهدمون القديم الموروث بنقدهم وكتاباتهم النثرية ، ويننون الحديث بقصائدهم وابداعهم الشعري ويحاولون تنظير تجاربهم وتفسيرها ، فليذكروا الرواد الذين عبدوا لهم الطريق وازاحوا من دروبهم

كثيراً من الاشواك والصخور ، وخففوا ، عنهم شيئاً من العبء بما حققوه بتضحياتهم من تجاوز لبعض المفاهيم التي لم تعد قائمة ، واختصروا لهم مراحل الطريق .

كان الشابي من الاوائل الذين سعوا للبحث عن فكرة شاملة تستوعب تجاربه ونظراته الى الوجود وفكرته عن الفن والحياة .

ولقد كتب الكثيرون عن الشابي الشاعر ، ولم يتحدث الا القليلون عن الشابي الناقد والشابي المنظر ، ولعل الوقوف عند هذا الجانب ، وقفة تستوعب بعض آرائه ومفاهيمه المنشورة في مقالاته ودراساته المتفرقة ، تكشف لنا عن اهمية الدور التجديدي الذي مارسه ادب الشابي في الوجدان الحديث ، كما تكشف لنا عن عناصر البقاء والاستمرار والمعاصرة في ثورته التي لا تزال تطالعنا في هذه المحاور الرئيسية التي يتحرك حولها الشعراء المعاصرون في تفسيرهم لثورتهم وتنظيرهم لتجاربهم على ما بينهم الآن من انفصال واختلاف فالقضايا التي عاناها الشابي ما تزال تفرض نفسها بعنف على الوجدان الشعري الحديث .

لا ريب في ان العصر قد تغير ، ولا ريب في ان القصيدة العربية الجديدة قد انفصلت انفصالا تاما عن القصيدة كما تصورها الشابي وابدعتها عبقرية الخلاقة ، ولكن الشيء الثابت الذي لا ريب فيه هو ان الشابي كان

رائدا كبيرا من رواد التجديد في الشعر وفي الوجدان الحضاري ، واجه في وقت مبكر مشكلات التجديد ، وتحمل متاعبه وخاض في سبيل تأكيد مفاهيمه معارك عنيفة بشعره ونثره كان لها أعنف الاثر على صحته وازمته الروحية العاصفة ، حين استيقظت نفسه على عالم روحي أسمى وأغنى من العالم الذي يحيط به ، فرفض النموذج الثابت المستقر ، وثار عليه ودعا لتجاوزه من اجل ايقاظ حس الامة وزيادة رصيد الابداع لديها ، والخروج بها من عالم الموت والظلام الى عالم النور والحياة .

لقد اتخذ الشابي من الشعر قضية يعيش من اجلها ، وتحولت لديه الى قضية تستوعب التزامه وثورته الحضارية فكان التجديد في الشعر عنده تجديدا في الثقافة وبعثا حضاريا شاملا .

لم يكن الشابي ظاهرة عابرة ، او بدعة من بدع الازواق المتقلبة ، ولم يكن جدولا صغيرا ينساب في الرمل ، ويغيب في وادي النسيان ، ولكنه كان تيارا هادرا كاسحا حفر مجراه بعمق في الوجدان العربي الحديث . كان علامة بارزة في تاريخ الكلمة العربية الشاعرة لا يستطيع المرء أن يعدوها او يتجاوزها ولا بد من ان يقف عندها لتحديد المرحلة وبيان المسافة . انه شاعر من الشعراء الذين ينتهي بظهورهم تاريخ ويتبدى تاريخ . وفي ذلك تفسير لهذه الخطوة التي ما يزال يظفر بها أدبه وتفسير

لتلك المكانة التي ظل يحتفظ بها منذ برز اسمه في الثلاثينات حتى اليوم ،
وتفسير لهذه الظاهرة التي ما تزال تشده بأوثق الروابط الى القضايا الراهنة
للشعر الحديث فتؤكد ان ثورته في بعض وجوهها ما تزال قائمة. فادب الشابي
ما يزال يمارس حضوره الحي في وجداننا بما يشيعه من التزام حضاري
وثورة مبدعة . وقد ينكر عليه الذوق الراهن بعض اشكاله الفنية أو بعض
إسرافه العاطفي ولكن احدا لا يمكن ان ينكر عليه انه كان شاهدا واعيا
من شهود عصره ، ومن شهود اليقظة العربية الحديثة ، ورائدا من الرواد
الاوائل المعبرين عن ازمة الضمير العربي الحديث .

واجه الشابي ، في وقت مبكر ، قضايا الشعر ومشكلات الشاعر
في كتاباته النثرية النقدية ، فاوشك ان يصوغ فكرة متكاملة من نظريته
الى الشعر وكان ما انجزه منها كافيا لتفسير عمله الابداعي .

لقد سبق الشابي هؤلاء الشعراء النقاد والشعراء المفسرين المنظرين
بمحاولاته الجريئة في صياغة مفاهيمه عن الشعر ورسالة الشاعر . وما تزال
القضايا التي تعرض لها تشكل هماً دائماً لكثير من الشعراء والنقاد ، وتوضح
لنا اهتمامات هذا الشاعر وعمق انشغاله بالشعر وقضاياه .

وفي اطار هذا الانشغال اهتم الشابي بابداء الرأي في هذه القضايا :

(١) مفهوم الشعر ومقاييسه الصحيح

- ٢ (مفهوم الشاعر ورسالته وصلته بالوجود
 - ٣ (مشكلة الحداثة والتراث
 - ٤ (تقييم لنظرة التراث للاسطورة والطبيعة والمرأة والقصة الشعرية
 - ٥ (نظرة للشعر المعاصر له ، واحكام متفرقة على واقعه وشخصياته
 - ٦ (تقييم للروح العربية
 - ٧ (صلة الشعر بالفكر والفلسفة
 - ٨ (الفنون والنفس العربية
 - ٩ (الادب العربي المعاصر
 - ١٠ (موقف من الاداب الاجنبية
 - ١١ (يقظة الاحساس واثرها في الفرد والجماعة .
- وسنحاول أن نلقي نظرة عابرة سريعة على بعض هذه القضايا كما تبدو من خلال معالجات الشابي ومواقفه .

من أهم هذه القضايا اخلاص الشاعر لنفسه وصدقه في التعبير عنها . وقد رفض الشابي كل الأطر والصيغ المستقرة الثابتة التي تحول دون تحقيق ذاته ، واتخذ من اصالته الذاتية منبعاً يستمد منه طابعه المميز الفريد فأنى ان يعيش تجربة غير تجربته ، وعصراً غير عصره ، ولقد حافظ رغم قصر تجربته الشعرية على تفرد ذاتي ، وخصائصه المميزة

التي جعلت منه صوتا نادرا ضمن الاصوات الفريدة في الشعر العربي
ومرجع ذلك الى يقظة حسه « فاذا تيقظ الاحساس في قلب الشاعر الفنان
كان له بالرغم عنه استقلاله الذاتي الذي يشعره بانه قوة حية منتجة من
المستحيل ان تندمج في سواها ، وان لا تشق لنفسها سبيلا بكرة للمجد
والحياة ، وكانت له كرامة ترتفع عن ان تذوب في غيرها او تنحط الى
درك التقليد وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج في قلب الحياة
وطائرا سماويا يتغنى بافكار واحلام البشر » .

اما ارتباط الشاعر بقضايا عصره ، وانشغاله له بهوموه واحزانه فقد
عبر عنها الشاعر في بيتين رد بهما على حبيبته الساحرة التي راعها منه
صمته ووجومه فقال :

بل هو الفن واكتنابه والفنان جم احزانه وهمومه
ابدا يحمل الوجود بما فيه كان ليس للوجود زعيمه

كان ذلك مفهوما جديدا يطرحه الشابي في بيئة لم تعتمد ان تخلع
هذا المعنى الجليل على الشاعر الفنان .

أما مفهومه للشعر فقد حدده في هذه الكلمات « ان الشعر يا صديقي
تصوير وتعبير ، تصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك مغنية ، ضاحكة لاهية
او مقطبة واجبة باكية ، او وادعة حاملة راضية ، او محترقة ثائرة ساخطة ،

وتصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في اعماق قلبك وتقلبات أفكارك ،
نفسك ، ورفرفة احلامك وعواطفك ، وتعبير عن تلك الصور وهاته
الآثار ، بأسلوب فني جميل ملؤه القوة والحياة ، يقرأه الناس فيعلمون انه
قطعة انسانية من لحم ودم ، وقلب وشعور ، لانهم يحسون انه قطعة من
روح الشاعر وعبق عواطفه أو فلذة حية من فؤاد الحياة » .

« هو هذا الأسلوب الذي يكون غنيا كالعاصفة يمثل سخط الحياة أو
فورات العواطف ، ويكون رقيقا مشجيا كأنات ناي بعيد يمثل أحلام
الحياة ويجوي القلوب المتحابة ، ويكون كئيبا مظلما كقلب الظلام حينما
يمثل بؤس الحياة واحزان البشر » .

« فالتصوير الصادق الذي يريك تصورات الشاعر أرقى من تصورات
البشر ، والتعبير الفني الجميل الذي يكون قلبا انسانيا حيا لذلك المعنى
الذي يشمل هو الذي ينبغي لك ان تبحث عنه كلما قرأت قصيدا او رتل
مقطوعا أو تصفحت ديوانا فان وجدته فكن على يقين انك انما تقرأ شعر
الحياة ، وان اخطاته فاعلم انك تقرأ شعرا زائفا لا قيمة له في سوق الخلود » .

« ولا يهمك بعد ان تجد التصوير الصادق والتعبير الصحيح ، أكان
ذلك شعرا غنائيا يتغنى بخوارج النفس وعواطف الانسان ، أم كان قصصيا
يقص عليك فصول الحياة كما هي ، أو يرسم لك مثلها العليا كما توحى اليه

احلامه أم كان تمثيلا يمثل لك كثيرا من حقائق النفس وصور الحياة ومشاهد الوجود وانما الذي يهمك بعد ان استوثقت ان الذي بين يديك نتاج قريحة منتجة وخيال حي صحيح ، هو ان تعرف انك تقرأ مثلاً أعلى من الشعر الانساني الذي يكاد يسمو الى درجة الإلهام أو أنك تقرأ مثلاً دون ذلك ، ولكي تدرك هذه الحقيقة ، فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع افق الحياة في نفسك ، ويجعلها تحس تيارات الوجود اكثر مما تحس وتدرك من معانيه واصواته أكثر مما ألفت ان تدرك ، وينسيك وجودك الانساني لحظة لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك ، أقول ، انظر اذا كان من هذا النوع ، فاعلم انك تقرأ شعراً إلهياً لا تجود بمثله الحياة كثيراً ، والا فاعلم انك تقرأ مثلاً دون ذلك .

« ذلك هو الشعر في نظري يا صديقي ، وهذا المقياس الذي أعرف به الشعر من غيره وأدرك به المثل الأعلى مما عداه ولكني قبل ان افارقك اقول ان هذا المقياس يقضي عليك ان اتبعته ان تلقي بكثير من أصنام الشعر ودواوين الشعراء الى النار ، الى سلة المهملات . »

« فان كنت رقيق القلب جم العواطف ، فاني انصح لك في اخلاص ان لا تأخذ هذا المقياس يا صاحبي ، وان تقنع بمقياسك ، ان كان لك مقياس تقدر به قيم الشعر في عالم الادب ، وان كنت من الاخلاص للادب والفن

بحيث لا يحزنك مشهد الاصنام البشرية تحترق في صميم الحياة ، ولا يحرك نفسك أو يهز مشاعرك رؤية الاسفار الكثيرة تندثر في ظلام الاهمال ، وتنبعث منها رائحة الموت ، فلتأخذ هذا المقياس ولتكن مخلصا في استعماله ، وأنا الكفيل بانك تكون قد حزت مقياسا دقيقا تعرف به كيف تفرق بين شعر الحياة الخالد وبين شعر السخافات والتقاليد .

ذلك هو مفهوم الشعر عند الشابي ، ويدرك الشابي خطورة هذا التعريف في عصر لم يالفه ، وفي بيئة توارثت ذلك الاصطلاح التقليدي الذي يعرف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى فينبه الى ان هذا المقياس خليق ان يدفع بصاحبه الى التضحية بالاصنام التي أقامتها الاجيال .

أما صورة الشاعر لدى الشابي فهي صورة « ذلك الفنان الذي يكون في روحه شيء من طبع النبوة التي تبصر ما لا يبصره الناس وتشعر باسمى ما يشعرون ، وعنصر من معنى الالهية التي تخلق من المادة الصماء حياة ساحرة وفلكا دائرا ، ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره فلذة من روحه وسمة من حياته ، فاذا هي ناطقة تعبر في قوة وإبداع عما في هذا الوجود من سحر وجمال ، ويتغنى بما يزخر به قلبه الثري من عطف وبغض ويأس وحنين ولذة وألم وغايات ومثل ، ذلك الجبار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر ليتحدث بلغة السماء عن ثورة الروح وحيرة الفكر التائهة بين نواميس العالم وبهاء الوجود » .

هذا هو النموذج الذي يضعه الشابي مقابلاً للنموذج الذي وضعته الاجيال القديمة وحددت وظيفته في نظم الكلام الموزون المقفى ونذر ملكاته للمدح والهجاء والارتباط بالاحداث العامة والمناسبات العابرة .

أما ثورته ضد التراث فقد كانت عنيفة عارمة ولكنها لم تفقد احترامها وتقديرها للقديم ، فهو يشعر باهمية الدور الذي يلعبه هذا الادب ، ويكبر ما قدمه للاجيال القديمة من تعبير عن تجربتهم في اطار عصرهم ومفاهيمهم السائدة ولكنه كان يدعو الى شعر يعانق التجربة الحديثة للانسان العربي الحديث ، ويعبر عن تجربته التي يخوضها في وجوده المعاصر انه يبحث عن تلاؤم بين الحياة التي نعيشها والتعبير عنها ، فلم يكن من المعقول لديه ان يعيش فكرنا على صور الماضي ، ويتخذها وسيلة للتعبير عن حاضر منفصل كل الانفصال عن قيم العالم القديم ، انه يبحث عن اضافة ابداعية ، والابداع لا يتم الا بالتجاوز والتخطي للقديم .

لقد كان الشابي يدعو للتجاوز ويعتبره ابداعاً ويرى في الوقوف عند القديم جموداً « عندما أقول ذلك الرأي عن الادب العربي لا أزعّم انه لا يلائم أذواق تلك العصور ولا أرواحها ، ولكني اقول انه لم يعد ملائماً لروحنا الحاضرة ، ولزاجنا الحالي ولأميلنا ورغائبنا في هذه الحياة . فقد اصبحنا نرى رأياً في الادب لا يمثله ونفهم فهمها في الحياة لا نجد عندنا ونطمح

بإبصارنا الى آفاق أخرى لم تحدثها أحلامه ولا يقظاته . لقد أصبحنا نتطلب أدبا جديدا نضيرا يحيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور ، نقرأه فنتمثل فيه خفقات قلوبنا وخطرات أرواحنا ، وهسات أمانينا وأحلامنا وهذا ما لا نجده في الادب العربي القديم . لقد أصبحنا نتطلب ادبا قويا عميقا يوافق مشاربنا ويناسب اذواقنا في حياتنا الحاضرة بما فيها من شوق وأمل ، وهذا ما لا نجده في الادب العربي ولا نظفر به ، لانه لم يخلق لنا نحن ابناء هذه القرون ، وانما خلق لقلوب اخرستها سكينه الموت . أما نحن فإز لنا ابناء الحياة ، ولهذا فلا ينبغي لنا ان ننظر الى الادب العربي كمثل اعلى للادب الذي ينبغي ان يكون ، ليس لنا الا احتذاؤه ومحاكاته في اسلوبه وروحه ومعناه بل يجب ان نعهده كأدب من الاداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس الا . اما ان يسمو هذا الاعجاب الى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لانفسنا ، لان لكل عصر حياته التي يحياها ولكل حياة ادبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب .

وانطلاقا من هذه الفكرة التي كونها عن الادب العربي الذي يرى انه لا يسد حاجتنا النفسية ، كانت دعوته الى الانفتاح على الآداب العالمية والاستفادة منها والتفاعل مع نماذجها الجديدة على الوجدان العربي .

وتلك ايضا قضية من القضايا التي ما تزال تثقل بمشاكلها على الوجدان

الشعري الحديث ، وتطالعنا الآن آثارها في الاتهامات التي تتردد من حين الى آخر حول استلهاام الشعراء للنماذج الاجنبية واستعارتهم للملامح غريبة عن تراثنا القديم .

ولا يتسع المجال لاستعراض كل القضايا التي يثيرها الشابي بشعره وآرائه النقدية ونظرياته في الشعر . وكان خليقا لو امتد به الاجل ان يزيد في بلورة هذه المفاهيم وتعميقها . وما من شك في انه قد تأثر فيها بالآراء النقدية والمعارك الادبية التي كانت شائعة في عصره والتي كانت تتردد على أقلام الكبار من رواد الادب العربي الحديث في المشرق وفي المهجر^(١) على ان هذه العوامل المؤثرة لا تنفي ما تميز به الشابي من طابع ذاتي قوي واصالة واضحة برزت مستقلة عن كل تأثير ، وبلغ من اصالتها وعمقها ان كانت مؤثرة في من جاء بعده من الشعراء والنقاد .

وانني لعلى يقين بان اعادة النظر في تراث الشابي على أساس من النظرة النقدية التي توحد بين شعره وما يعبر عنه من ثورة حضارية ، وبين نقدراته وتنظيراته وربطها بقضايا الشعر المعاصر ستزيد من توسيع

(١) انظر الفصل السابق عن العوامل الفعالة في تجربة الشابي الشعرية .

آفاق الدراسات الشابية وتبين مدى اتساع الدائرة التي تفاعل معها وأثر
فيها ، وتبرهن على ان ثورته ما تزال قائمة تعمل عملها ، وتعارض حضورها
في الوجدات .

على ان ثورة الشابي لا ترفض ان تتجاوز حتى مبدعها عندما يتحول
الى نموذج ثابت وقالب من القوالب او صيغة من الصيغ التاريخية التي فقدت
صلتها بالواقع وذلك حين يقرر به ان لكل أدب حياته التي يحياها ،
ولكل حياة أدها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب .

رَوَاسِعُ الشَّامِ

صلوات في هيكل الحب

عذبة انت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
 كالسما الضحوك ، كالليلة القمر ، كالورد ، كابتسام الوليد
 يا لها من طهارة ، تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد
 يا لها رقة ، يكاد يرفّ الورد منها في الصخرة الجلمود
 أي شيء تراك ؟ هل انت فينيس تهادت بين الوري من جديد
 لتعيد الشباب والفرح المعسول للعالم التعيس البعيد
 أم ملاك الفردوس جاء الى الارض ليحيي روح السلام العهد
 انت ما انت ؟ انت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود
 فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدس معبود
 انت ما انت ؟ انت فجر من السحر تجلّى لقلبي العمود
 فأراه الحياة في مونق السحر ، وجلّى له خفايا الخلود
 انت روح الربيع تحتال في الدنيا ، فتتهز رائعات الورد
 وتهب الحياة سكرى من العطر ، ويدوي الوجود بالتغريد
 كلما أبصرتك عيناى تمشين بخطو موقع ، كالنشيد

خفق القلب للحياة ، ورفّ الزهر في حقل عمري المجرود !
 وانتشت روحي الكثيبة بالحب ، وغنّت كالبلبل الغريد !
 انت تحيين في فؤادي ما قد مات في أمسي السعيد الفقيـد !
 وتشيدن في خرائب روحي ما تلاشى في عهدي المحدود !
 من طموح الجمال ، الى الفن ، الى ذلك الفضاء البعيد !
 وتبثين رقة الشوق والاحلام والشجو والهوى ، في نشيدي !
 بعد ان عانقت كآبة أيامي فؤادي ، وألجمت تغريدي !
 انت انشودة الأناشيد ، غنّاك إله الغناء ، رب القصيد !
 فيك شب الشباب وشحه السحر ، وشدو الهوى وعطر الورود !
 وتراءى الجمال يرقص رقصاً قدسياً على أغاني الوجود !
 وتهاوت في أفق روحك أوزان الأغاني ، ورقّة التغريد !
 فتمايلت في الحياة كلحن عبقري الخيال ، حلو النشيد !
 خطوات سكرانة بالأناشيد ، وصوت كرجع ناي بعيد !
 وقوام يكاد يهتف بالألحان في كل وقفة وقعود !
 كل شيء موقع فيك ، حتى لفظة الجيد واهتزاز النهود !
 انت.. انت الحياة في قدسها السامي ، وفي سحرها الشجيّ الفريد !
 انت.. انت الحياة في رقة الفجر ، وفي رونق الربيع الوليد !
 انت.. انت الحياة كل أوان ، في رواء من الشباب جديد !
 انت.. انت الحياة فيك ، وفي عينيك آيات سحرها الممدود !
 انت دنيا من الأناشيد والأحلام ، والسحر ، والخيال المريد !

انت فوق الخيال والشعر والفن، وفوق النهى، وفوق الحدود !
 انت قدسي ومعبدي وصباحي ، ورييبي ونشوتي وخلودي !
 يا ابنة النور ، انني انا وحدي من رأى فيك روعة المعبود !
 فدعيني أعيش في ظلك العذب ، وفي قرب حسنك المعبود !
 عيشة للجمال والفن والالهام ، والطهر والسنى ، والسجود !
 عيشة الناسك البتول ، يناجي الرب في نشوة الذهول الشديد !
 وامنحيني السلام والفرح الروحي ، يا ضوء فجرى المنشود !
 وارحميني ، فقد تهدمت في كون من اليأس والظلام مشيد !
 اتقذيني من الأسى ، فلقد أمسيت لا استطيع حل وجودي !
 في شعاب الزمان والموت أمشي ، تحت عبء الحياة جم القيود !
 وأماشي الورى ونفسي كالقبر ، وقلبي كالعالم المهود !
 ظلمة ما لها ختام ، وهول شائع في سكونها الممدود !
 واذا ما استخفني عبث الناس ، تبسمت في أسى وجود !
 بسمة مُرَّة ، كاني أستل من الشوك ذابلات الورود !
 وانفخي في مشاعري مرج الدنيا ، وشدي من عزمي المجهود !
 وابعثي في دمي الحرارة ، عليّ أتغنى مع المنى من جديد !
 وأبث الوجود أنغام قلب بليلي ، مكبل بالحديد !
 فالصباح الجديد ينعش بالدفء حياة المحطم المكدود !
 اتقذيني فقد سئمت ظلامي ، اتقذيني فقد مللت ركودي !

* * *

آه يا زهرتي الجميلة ، لو تدرين ما جدّ في فؤادي الوحيد !
 في فؤادي الغريب تخلق أكوان من السحر ذات حسن فريد !
 وشموس وضّاءة ونجوم ، تنثر النور في فضاء مديد !
 وربيع كأنه حلم الشاعر في سكرة الشباب السعيد !
 ورياض لا تعرف الحلك الداجي ، ولا ثورة الخريف العتيد !
 وطيور سحرية تتناغى ، بأناشيد حلوة التغريد !
 وقصور كأنها الشفق المخضوب ، او طلعة الصباح الوليد !
 وغيوم رقيقة تتهادى ، كإباديد من نثار الورود !
 وحياة شعرية هي عندي ، صورة من حياة أهل الخلود !
 كل هذا يشيده سحر عينيك ، وإلهام حسنك المعبود !
 وحرام عليك ان تهدمي ما شاده الحسن في الفؤاد العميد !
 وحرام عليك ان تسجقي آمال نفس تصبو لعيش رغيد !
 منك ترجو سعادة لم تجدها في حياة الوري وسحر الوجود !
 فالإله العظيم لا يرجم العبد ، اذا كان في جلال السجود !

الني المجهول

أيها الشعب ! ليتني كنت خطاباً
 ليتني كنت كالسيول ، اذا سالت
 ليتني كنت كالرياح ، فاطوي
 ليتني كنت كالشتاء ، أغشي
 ليت لي قوة العواصف ، يا شعبي
 ليت لي قوة الأعاصير ، إن ضجّتْ
 ليت لي قوة الأعاصير .. ! لكن
 انت روحٌ غبيّةٌ ، تكره النور ،
 انت لا تدرك الحقائق إن طافت
 في صباح الحياة ضمّختُ أكوابي
 ثم قدّمتُها اليك ، فاهرقتْ
 قتالت .. ثم أسكتُ آلامي ،
 ثم نضدت من أزاهير قلبي

فاهوي على الجذوع بفاسي !
 تهدُّ القبور : رسماً برمس !
 كلّ ما يخنق الزهور بنحسي !
 كلّ ما أذبل الحريف بقرسي !
 فألقي اليك ثورة نفسي !
 فادعوك للحياة بنبسي !
 انت حيٌّ ، يقضي الحياة برمس .. !
 وتقضي الدهور في ليل مَلْس ..
 حواليك دون مسٍّ وجسٍّ ...
 وأترعتها بخمرة نفسي ...
 رحيقي ، ودُستَ يا شعب كاسي !
 وكفكفت من شعوري وحسي
 باقةً لم يمسّها أيُّ إنسي ..

ثم قدّمتها اليك ، فمزّقتَ ورودي ، ودُستّها أيّ دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً . وبشوك الجبال توّجت رأسي

* * *

انني ذاهب الى الغاب ، يا شعبي
انني ذاهب الى الغاب ، عليّ
ثم أنساك ما استطعت ، فما انت
سوف أتلو على الطيور أناشيدي ،
فهي تدري معنى الحياة ، وتدري
ثم أقضي هناك ، في ظلمة الليل ،
ثم تحت الصنوبر ، الناضر ، الحلو ،
وتظلّ الطيور تلغو على قبري
وتظلّ الفصول تمشي حواليّ

لأقضي الحياة ، وحدي ، بيأس
في صميم الغابات أدفن بؤسي
باهلٍ لخرقي ولكاسي
وأقضي لها بأشواق نفسي
أنّ مجدّ النفوس يقظة حسّ
وألقي الى الوجود بياسي
تخطّ السيول حفرة رمسي
ويشدو النسيم فوق بهمس
كما كنّ في غصارة أمسي

* * *

أيها الشعب ! انت طفل صغير ،
انت في الكون قوة ، لم تسسّها
انت في الكون قوة ، كبّلثها
والشقيّ الشقي من كان مثلي

لأعبّ بالتراب والليل مُغسّس .
فكرةً ، عبقريةً ، ذات بأس
ظلمات العصور ، من أمسّ أمسّ ..
في حساسيتي ، ورقة نفسي

* * *

هكذا قال شاعرٌ ، ناولَ الناس
فأشاحوا عنها ، ومرّوا غضاباً

رحيقَ الحياة في خير كأس
واستخفّوا به ، وقالوا بيأس :

« قد أضع الرشاد في ملعب الجن
 « طالما خاطب العواطف في الليل
 « طالما رافق الظلام الى الغاب
 « طالما حدث الشياطين في الوادي،
 « انه ساحرٌ ، تعلّمه السحرُ
 « فابتعدوا الكافر الخبيث عن الهيكل
 « اطرده ، ولا تصيخوا اليه
 « فيا بؤسه ، أصيب بمسُ ،
 « وناجى الأموات في غير رمس ،
 « ونادى الارواح من كل جنس ،
 « وغنى مع الرياح بجرس ،
 « الشياطينُ ، كل مطلع شمس ،
 « إن الخبيث منبعُ رجس ،
 « فهو روح شريرة ، ذات نحس ،

* * *

هكذا قال شاعرٌ ، فيلسوف ،
 « جهلَ الناسُ روحه ، وأغانيها
 « فهو في مذهب الحياة نبيُّ
 « هكذا قال ، ثم سار الى الغاب ،
 « وبعيداً .. هناك .. في معبد الغاب
 « في ظلال الصنوبر الحلو ، والزيتون
 « في الصباح الجميل ، يشدو مع الطير ،
 « نافخاً نايه ، حواليه ، تهتزُّ
 « شعره مُرسل ، تداعبه الريح
 « والطيور الطراب تشدو حواليه
 « وتراه عند الأصيل ، لدى الجدول ،
 « او يغني بين الصنوبر ، او يرنو
 « عاش في شعبة الغيِّ بتعس
 « فساموا شعوره سَوْمَ بخس
 « وهو في شعبة مُصابُ بمسُ
 « ليحيا حياة شعر وُقُـدس
 « الذي لا يطلُّه أي بؤس
 « يقضي الحياة : حرساً بجرس
 « ويمشي في نشوة المتحسِّي
 « ورود الربيع من كل فنس
 « على منكبيه مثل الدمقس
 « وتلغو في الدوح ، من كل جنس
 « يرنو للطائر المتحسِّي
 « الى سُـدفة الظلام المسي

فاذا أقبل الظلام ، وأمستُ
 كان في كوخه الجميل ، مقيماً
 عن مصبِّ الحياة ، أين مداه ؟
 وأريجِ الورود في كل وادٍ
 وهزيم الرياح ، في كل فجٍّ
 وأغاني الرعاة أين يوارها
 ظلمات الوجود في الأرض تُغسي^(١)
 يسأل الكون في خشوع وهمس
 وصميم الوجود ، أيّان يُرسي ؟
 ونشيد الطيور ، حين تمسّي
 ورسوم الحياة من أمس أمس
 سكّونُ الفضاء ، وأيّان تمسي ؟؟

* * *

هكذا يصرف الحياة ، ويُفني
 يا لها من معيشة في صميم الغاب
 يا لها من معيشة ، لم تدنّسها
 يا لها من معيشة ، هي في الكون
 حلقات السنين : حرساً بحرس
 تُضحّي بين الطيور وتمسي !
 نفوس الورى بجثث ورجس
 حياة غريبة ، ذات قدس

٢٠ شعبان ١٣٤٨

٢١ كانون الثاني ١٩٣٠

(١) أغنى الليل : أظلم .

أنا أبكيك للحب

لستُ يا أمسي أبكيك لمجدٍ أو لجاءٍ
سلبته مني الدنيا ، وبزنتي رداه
فانا أحقر المجد وأوهام الحياه

* * *

أو لعُمرٍ ، بلغت منه الليالي منتهاه
وتلاشت في خضم الزمن الطاغي قواه
فانا ما زلت في فجر شبابي أو ضحاه

* * *

لا ، ولا أبكيك يا أمسي ، اذا ما قلت : «آه»
لنعيم ، لم ينل قلبي منه مشتاه
فبنو الأيام في الدنيا كما شاء الإله

* * *

إنما أبكيك للحب ، الذي كان بهاء
 يلاً الدنيا فأنى سرتُ في الدنيا أراه
 فاذا ما لاح فجرٌ ، كان في الفجر سناه
 وإذا غرّد طيرٌ ، كان في الشدو صداه
 وإذا ما ضاع عطر ، كان في العطر شذاه
 وإذا ما رفَّ زهر ، كان في الزهر صباه
 فهو في الكون جمال ، يلاً الأفق ضياه
 وتوثني هذه الأكوان بالسحر رؤاه
 وهو في قلبي - الذي عاتقه الفجر - إله !
 عبقرى السحر ، ممراحٌ وديعٌ في سماه
 ينسج الأحلام في قلبي بأضواء الحياه
 ويغنّيني ، فأنسى في مسرات غناه
 كل ما في الكون من حزن وأفراح ، عداه

٨ جمادى الاولى ١٣٥٠

٢١ سبتمبر ١٩٣١

في ظل وادي الموت

نحن نمشي ، وحولنا هاته الأكوا
ن تمشي ... لكن لأية غايه ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس ،
وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت
ولكن ماذا ختام الروايه ؟
هكذا قلت للرياح فقالت :
« سل ضمير الوجود : كيف البداية ؟ »

* * *

وتغشّى الضباب نفسي ، فصاحت
في ملال مُرّ : « الى أين أمشي ؟ »
قلت : « سيرني مع الحياة .. » فقالت :
« ما جيننا ، ترى ، من السير أمس ؟ »

فتهانتُ كالهشيم - على الارض -
وناديت : « أين يا قلب رفشي ؟ »
« هاتِه ، علني أخطُ ضريحي »
« في سكون الدجى وأدفن نفسي »

* * *

« هاته فالظلام حولي كثيف ... »
« وضباب الأسى مُنيخٌ عليا ... »
« وكؤوس الغرام أترعها الفجر ، »
« ولكن تحطمت في يديا ... »
« والشباب الغرير ولّى الى الماضي »
« وخلّى النحيب في شفتيّا ، »
« هاته ، يا فؤاد إنا غريبان ، »
« نصوغ الحياة فنا شجيا ... »

* * *

« قد رقصنا مع الحياة طويلا »
« وشدوْنَا مع الشباب سنينا ... »
« وعدوْنَا مع الليالي حُفاةً .. »
« في شعاب الحياة حتى دَمينا ... »
« وأكلنا التراب حتى ملئنا ... »
« وشربنا الدموع . حتى روينا ... »

« ونثرنا الأحلام والحب والآلام ... »
« والياس ، والأسى ، حيث شينا ... »

* * *

« ثم ماذا ؟ هذا أنا : صرتُ في الدنيا »
« بعيداً عن لُهوها وغناها »
« في ظلام الفناء ، أدفن أيامي »
« ولا أستطيع حتى بكها ؟ »
« وزهور الحياة تهوي ، بصمت »
« محزن ، مضجر ، على قدميّا »
« جفّ سحر الحياة ، يا قلبي الباكي ، »
« فُهيّا ، نجرّب الموت .. هيّا .. ! »

٢٨ ذو القعدة ١٣٥٠

٥ نيسان ١٩٣٢

نسيم الجبار

أو هكذا غنى بروميثيوس

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة السماء
أرني إلى الشمس المضيئة .. هازئاً بالسحب، والأمطار، والأنواء...
لا أرمق الظلّ الكثيب.. ولا أرى ما في قرار الهوة السوداء...
وأسير في دنيا المشاعر، حالماً، غرداً - وتلك سعادة الشعراء -
أصني لموسيقى الحياة، ووحياها وأذيب روح الكون في إنشائي
وأصيح للصوت الإلهي، الذي يُحيي بقلبي ميّت الأصداء

* * *

وأقول للقدر الذي لا ينثني عن حرب آمالي بكل بلاء :
« لا يطفئ اللهب المؤجّج في دمي موج الأسى، وعواصف الأرزاء،
« فاهدم قوّادي ما استطعت، فانه سيكون مثل الصخرة الصماء،
« لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا وضراعة الاطفال والضعفاء،

« ويعيش جباراً ، يحدّق دائماً
 « واملأ طريقي بالخاوف ، والدجى ،
 « وانشر عليه الرعب ، وانثر فوقه
 « ساطل أمشي رغم ذلك ، عازفاً
 « أمشي بروح حالم ، متوهّج
 « النور في قلبي وبين جوانحي
 « إني أنا الناي الذي لا تنتهي
 « وأنا الخضمّ الرحب ، ليس تزيد
 « أما اذا جمدت حياتي ، وانقضى
 « وخبا هيب الكون في قلبي الذي
 « فانا السعيد بأنني متحوّل
 « لأذوب في فجر السماء السرمديّ »

* * *

« وأقول للجمع الذين تجشّموا
 « ورأوا على الأشواك ظلّي هامداً
 « وغدواً يشبّون اللهب بكلّ ما
 « ومضوا يمدّون الخوان ، لياكلوا
 « إني أقول لهم - ووجهي مشرق
 « إن المعاول لا تهدّ مناكبي
 « فارموا الى النار الحشائش ، والعبوا
 « هدمي وودّوا لو يخرّب بنائي
 « فتخيّلوا أنّي قضيتُ ذمائي
 « وجدوا .. ليشوا فوقه أشلائي
 « لمحي ، ويرتشفوا عليه دمائي
 « وعلى شفاهي بسمّة استهزاء - :
 « والنار لا تأتي على أعضائي
 « يا معشر الاطفال تحت سمائي »

«واذا تمرّدت العواصف، وانتشى
«ورأيتوني طائراً ، مترنماً
«فارموا على ظلي الحجارة، واختفوا
«وهناك، في أمن البيوت، تطارحوا
«وترنّما - ما شئتم - بشتائي
«أما أنا فاجيبكم من فوقكم
«من جاش بالوحي المقدّس قلبه
بالهول قلب القبّة الزرقاء،
فوق الزوابع ، في الفضاء النائي،
خوف الرياح الهُوج والأنواء . .
غثّ الحديث ، وميّت الآراء،
وتجاهروا - ما شئتم - بعيدائي،
والشمس والشقق الجميل إزائي،
لم يحتفل بحجارة الفلتاء،

٢٧ شعبان ١٣٥٢
١٥ كانون أول ١٩٣٣

الجنة الضائعة

كم من عهود عذبة في عدوة الوادي النضير
فضية الاسحار مذهبة الأصائل والبكور
كانت أرق من الزهور ، ومن أغاريد الطيور
والذ من سحر الصبا في بسمه الطفل الغرير
قضيتها ومعها الحبيبة لا رقيب ولا نذير
إلا الطفولة حولنا تلهو مع الحب الصغير
أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل ، وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور ، بين جداول الماء النмир
أيام لم تعرف من الدنيا سوى مراح السرور
وتتبّع النحل الأنثى ، وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور

مسقوفةً بالورد ، والاعشاب ، والورق النضير
 نبني ، فتهدمها الرياح ، فلا نضجُ ولا نشور
 ونعود نضحك للمروج ، وللزنابق ، والغدير
 ونخاطب الأصداء ، وهي ترفُ في الوادي المنير
 ونعيد أغنية السواقي ، وهي تلغو بالحرير
 ونظلُ نركض خلف أسراب الفراش المستطير
 ونغرّ ما بين المروج الخضر ، في سكر الشعور
 نشدو ، ونرقص - كالبلابل - للحياة ، وللحبور
 ونظلُ ننثر للفضاء الرحب ، والنهر الكبير
 ما في فؤادينا من الاحلام ، او حلو الغرور
 ونشيد في الأفق المخضّب من أمانينا قصور
 أزهى من الشفق الجميل ، ورونق المرج الخضير
 وأجلّ من هذا الوجود ، وكل أبعاد الدهور
 أبداً ، تذللّها الحياة بكلّ أنواع السرور
 وتبتّ فينا من مراح الكون ما يغوي الوقور
 فنسير ، ننشد لهونا المعبود - في كل الامور
 ونظل نعبث بالجليل من الوجود ، وبالحقير ؛
 - بالسائل الأعى وبالمعتوه ، والشيخ الكبير
 بالقطعة البيضاء ، بالشاة الوديعة ، بالحمير
 بالعشب ، بالفن المنور ، بالسنابل ، بالسفير

بالرمل ، بالصخر المحطّم ، بالجداول ، بالغدير
واللهو ، والعبث البريء الحلو ، مطمحنا الاخير
ونظل نقفز ، او نثرثر ، او نغني ، او ندور
لا نسام اللهو الجميل ، رليس يدركنا الفتور
فكانتا نحيّا بأعصاب من المرح المثير
وكانتا نمشي باقدام مجنّحة ، تطير
أيام كنا لبّ هذا الكون ، والباقي قشور
أيام تفرش سبلنا الدنيا بأوراق الزهور
وتمرّ أيام الحياة بنا ، كإسراب الطيور
بيضاء لاعبة ، مغرّدة ، مجنّحة بنور
وترفرف الافراح فوق رؤوسنا ، أنى نسير

* * *

آه اتوارى فجريّ القدسيّ في ليل الدهور
وفنى ، كما يفنى النشيد الحلو في صمت الأثير
أواه ، قد ضاعت عليّ سعادة القلب الغرير
وبقيتُ في وادي الزمان الجهم أدأب في المسير
وأدوس أشواك الحياة بقلبيّ الدامي الكسير
وأرى الإباطيل الكثيرة ، والمآثم ، والشرور
وتصادمّ الأهواء بالأهواء في كل الامور
ومذلة الحق الضعيف ، وعزّة الظلم القدير !
وأرى ابن آدم سائراً في رحلة العمر القصير

ما بين أهوال الوجود ، وتحت أعباء الضمير
متسلقاً جبلَ الحياة الوعرَ ، كالشيخ الضرير
دامي الأكف ، ممزقَ الأقدام ، مغبرَّ الشعور
مترنح الخطوات ما بين المزالق والصخور
هالته أشباح الظلام ، وراعه صوت القبور
ودوي إعصار الأسى ، والموت ، في تلك الوعور

* * *

ماذا جنيت من الحياة ، ومن تجارب الدهور
غير الندامة والأسى ، واليأس والدمع الغزير ؟
هذا حصادي من حقول العالم الرحب الخطير
هذا حصادي كله ، في لحظة العهد الاخير

* * *

قد كنتُ في زمن الطفولة ، والسذاجة ، والطهور
أحيا كما تحيا البلابل ، والجداول ، والزهور
لا نخفل ، الدنيا تدور بأهلها ، أو لا تدور
واليوم أحيا مرهق الاعصاب ، مشوب الشعور
متأجج الاحساس ، أحفل بالعظيم ، وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ، ويزحف الكون الكبير
هذا مصيري ، يا بني الدنيا ، فما أشقى المصير !

١٢ رمضان ١٣٥١

٩ كانون الثاني ١٩٣٣

ارادة الحياة

اذا الشعب يوماً أراد الحياة
ولا بدَّ للَّيل ان ينجلي
ومن لم يعانقه شوق الحياة
فويل لمن لم تشقه الحياة
كذلك قالت لي الكائنات
وحدثني روحها المستر
فلا بدَّ ان يستجيب القدر
ولا بدَّ للقيد ان ينكسر
تبخر في جوها ، وانذر
من صفة العدم المنتصر

* * *

ودمدمت الريح بين الفجاج
« اذا ما طمحت الى غاية
» ولم أتجنب وعورَ الشباب
» ومن لا يحب صعود الجبال
فعجّت بقلبي دماء الشباب
وأطرقت أصغي لقصف الرعود
وفوق الجبال وتحت الشجر :
ركبتُ النى، ونسيت الحذر
ولا كُبةً للهب المستعر
يعش أبدَ الدهر بين الحفر
وصجّت بصدري رياح آخر
وعزف الرياح ، ووقع المطر

* * *

وقالت لي الأرض - لما سألت : « أيا أمّ هل تكرهين البشر؟ » :
 « أبارك في الناس اهل الطموح ، ومن يستلذّ ركوب الخطر ،
 « وألعن من لا يماشي الزمان ، ويقنع بالعيش ، عيش الحجر ،
 « هو الكون حيٌّ يحب الحياة ، ويحتقر الميت ، مهما كبر ،
 « فلا الأفق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزهر ،
 « ولولا أمومة قلبي الرؤوم ، لما ضمت الميت تلك الحفر ،
 « فويل لمن لم تشقه الحياة ، من لعنة العلم المنتصر ! »

* * *

وفي ليلة من ليالي الخريف ، مثقلة بالأسى والضجر
 سكرتُ بها من ضياء النجوم ، وغنّيت للحزن حتى سكر
 سألت الدجى : هل تعيد الحياة لما أذبلته ، ربيع العمر ؟
 فلم تتكلم شفاه الظلام ، ولم تترنّم عذارى السحر
 وقال لي الغاب في رقة محبة مثل خفق الوتر :
 « يجيء الشتاء ، شتاء الضباب ، شتاء الثلوج ، شتاء المطر ،
 « فينطفئ السحر ، سحر الغصون ، وسحر الزهور ، وسحر الثمر ،
 « وسحر السماء الشجيّ الوديعة ، وسحر المروج الشهيّ العطير ،
 « وتهوي الغصون وأوراقها ، وأزهار عهد حبيب نضير ،
 « وتلهو بها الريح في كل واد ، ويدفنها السيل أنى عبر ،
 « ويفنى الجميع كحلّ بديع ، تألّق في مهجة واندر ،
 « وتبقى البذور ، التي حُملت ذخيرةً عمر جميل ، غبر ،

« وذكري فصول ، ورؤيا حياة ، وأشباحَ دنيا تلاشت زُمر »
 « معانقةٌ - وهي تحت الضباب ، وتحت الثلوج ، وتحت المدَر - »
 « لِطَيْفِ الحياة الذي لا يُمَلِّ ، وقلب الربيع الشذي الخضر »
 « وحالةٌ بأغاني الطيور ، وعطر الزهور ، وطعم الثمر »

* * *

« ويمشي الزمان ، فتنمو صرُوف ، وتذوي صرُوف ، وتحيا آخر »
 « وتصبح أحلامها يقظةً ، موشحةً بغموض السَّحَر »
 « تُسائل : أين ضباب الصباح ، وسحر المساء ، وضوء القمر ؟ »
 « وأسرار ذاك الفراش الأنيق ، ونخل يغني ، وغيم يمر ؟ »
 « وأين الأشعة والكائنات ؟ وأين الحياة التي أنتظر ؟ »
 « ظمئتُ الى النور فوق الغصون اظمئتُ الى الظل تحت الشجر ا »
 « ظمئتُ الى النبع بين المروج ، يغني ويرقص فوق الزهر ا »
 « ظمئتُ الى نغمات الطيور ، وهمس النسيم ، ولحن المطر ا »
 « ظمئتُ الى الكون ا أين الوجود ، وأنى أرى العالم المنتظر ؟ »
 « هو الكون ، خلف سبات الجمود ، وفي أفق اليقظات الكبَر »

* * *

« وما هو إلا كخفق الجناح ، حتى نما شوقها وانتصر »
 « فصدعت الارضَ من فوقها ، وأبصرت الكون عذب الصور »
 « وجاء الربيع بانغامه ، وأحلامه ، وصباه العطر »
 « وقبلها قُبَلًا في الشفاه ، تعيد الشباب الذي قد غبَر »

« وقال لها : قد مُنحتِ الحياة ، وُخلِّدتِ في نسلِكِ المدَّخَرِ »
 « وبارككِ النور ، فاستقبلي شباب الحياة وخصب العمر »
 « ومن تعبد النورَ أحلامُه ، يباركه النور أنى ظهر »
 « اليكِ الفضاء ، اليكِ الضياء ، اليكِ الثرى الحالمُ المزدهر ! »
 « اليكِ الجمال الذي لا يبيد ! اليكِ الوجود الرحيب النضر ! »
 « فيدي - كما شئت - فوق الحقول ، بجلو الثار وغض الزهر »
 « وناجي النسيم ، وناجي الغيوم ، وناجي النجوم ، وناجي القمر »
 « وناجي الحياة وأشواقها ، وفتنة هذا الوجود الأغر »

* * *

« وشفَّ الدجى عن جمال عميق ، يشبُّ الخيال ، ويذكي الفكر »
 « ومُدَّ على الكون سحر غريب ، يصرفه ساحر مقتدر »
 « وضاءت شموع النجوم الوضاء ، وضاع البخور ، بخور الزهر »
 « ورُفِرَ روح غريب الجمال ، بأجنحة من ضياء القمر »
 « ورنَّ نشيد الحياة المقدس ، في هيكل حالم قد سُجِر »
 « وأعلنَ في الكون : أن الطموح لهيب الحياة ، وروح الظفر »
 « اذا طمعت للحياة النفوس ، فلا بدَّ ان يستجيب القدر ! »

٢٦ هادي الاولى ١٣٥٢

١٦ أيلول ١٩٣٣

قلب الـام

يا أيها الطفل الذي قد كان كاللحن الجميل
والوردة البيضاء ، تعمق في غيابات الأصيل
يا أيها الطفل الذي قد كان في هذا الوجود ،
فرحاً ، يناجي فتنة الدنيا بمعسول النشيد
ها أنت ذا أطبقت جفنيك أحلام المنون
وتطارت زمر الملائك حول مضجعتك الأمين
ومضت بروحك للسماء عرائس النور الحبيب
يحملن تيجاناً مذهبةً ، من الزهر الغريب
ها انت ذا قد جلّلتك سكينة الأبد الكبير
وبكتك هاتيك القلوب ، وضمتك القبر الصغير
وتفرّق الناس الذين الى المقابر شيعوك
ونسوك من دنياهم ، حتى كان لم يعرفوك
شغلتهم عنك الحياة ، وحرب هذي الكائنات

إنَّ الحياة - وقد قضيتَ قُبيل معرفة الحياة -
 بجرُّ ، قرارته الردى ، ونشيد لجثته شكاة
 وعلى شواطئه القلوب تئنُّ ، داميةٌ عُراة
 بجرُّ ، تجيش به العواصف في العشية والغداة
 وتُظله سُحب الظلام ، فلا سكونَ ولا إياة
 نسيَتكَ أمواج البحيرة ، والنجوم اللامعه
 والبلبل الشادي ، وهاتيك المروج الشاسعه
 وجداول الوادي النضير برقصها وخريرها
 ومسالك الجبل الصغير بعشبا وزهورها
 حتى الرفاق .. فانهم لبثوا مدًى يتساءلون
 في حيرة مشبوهة : « أين اختفى هذا الامين ؟ »
 لكنهم علموا بأنك في الليالي الداجيه
 حملتكَ غيلاظ الظلام الى الجبال الناثيه
 فنسوك مثل الناس .. وانصرفوا الى اللهو الجميل
 بن الخائل ، والجداول ، والروابي ، والسهول
 ونسوا وداعة وجهك الهادي ، ومنظرك الوسيم
 ونسوا تغنيك الجميل بصوتك الحلو ، الرخيم
 ومضوا الى المرج البهيج ، يطاردون طيوره
 ويزحزون صخوره ، ويعابثون زهوره
 ويشيئون من الرمال البيض ، والحصب النضير

غرّفاً ، وأكواخاً تكلّلها الحشائش والزهور
 وينضّدون من الربى ، بين التضاحك والحبور
 طاقاتٍ وردٍ ، أبدٍ ، تُزرى بأوراد القصور
 يلقونها في النهر ، قرباناً لآلهة السرور
 فتسير في التيار ، راقصة على نغم الخريز
 كلّ نسوك ، ولم يعودوا يذكرونك في الحياة
 والدهر يدفن في ظلام الموت ، حتى الذكريات
 إلا فؤاداً ، ظلّ يخفق في الوجود الى لفاك
 ويودّ لو بذل الحياة الى المنية ، وافتداك
 فاذا رأى طفلاً بكاك ، وإن رأى شبحاً دعاك
 يصغي لصوتك في الوجود ، ولا يرى إلا بهاك
 يصغي لنغمتك الجميلة في خريز الساقية
 في رنة المزمار ، في لغو الطيور الشادية
 في ضجة البحر المجلجل ، في هدير العاصفه
 في لجّة الغابات ، في صوت الرعود القاصفه
 في نغمة الحمل الوديّع ، وفي أناشيد الرعاة
 بين المروج الخضر والسفح المجلّل بالنبات
 في آهة الشاكي ، وضوضاء الجموع الصاخبه
 في شهقة الباكي يؤجّجها نواح النادبه
 في كل أصوات الوجود : طروبها وكثيبيها

ورخيمها ، وعنيفها ، وبغيضها ، وحبيبها
 ويراك في صور الطبيعة : حلوها ، وديمها
 وحزينها وبيجها ، وحقيرها وعظيمها
 في رقة الفجر الوديع ، وفي الليالي الحاله
 في فتنة الشفق البديع ، وفي النجوم الباسمه
 في رقص أمواج البحيرة تحت أضواء النجوم
 في سحر أزهار الربيع ، وفي تهاويل الغيوم
 في لمعة البرق الخفوق ، وفي هوي الصاعقه
 في ذلة الوادي ، وفي كبر الجبال الشاهقه
 في مشهد الغاب الكثيب ، وفي الورود^(١) العاويه
 في ظلمة الليل الحزين ، وفي الكهوف العاريه
 أعرفت هذا القلب في ظلماء هاتيك اللحد ؟
 هو قلب أمك ، أمك السكري بأحزان الوجود
 هو ذلك القلب الذي سيعيش كالشادي الضير
 يشدو بشكوى حزنه الداجي الى النفس الاخير
 لا ربة النسيان ترحم حزنه وترى شقاه
 كلا ! ولا الايام تبلي في أناملها أساه
 إلا اذا ضفرت له الأقدار إكليل الجنون
 وغدا شقياً ضاحكاً ، تلهو بمراءه السنون

(١) الورود : جمع ورد : الأسد .

هو ذلك القلب الذي مهما تقلّبت الحياة
وتدفعَ الزمن المدمم في شعاب الكائنات
وتغنت الدنيا ، وغرّد بلبل الغاب الجميل
سيظلّ يعبد ذكرياتك : لا يَمَلُّ ، ولا يميل
كالارض : تمشي فوق تربتها المسرّة ، والشباب
والليل ، والفجر المجنّح ، والعواصف ، والسحاب
والحبُّ تنبت في مواطنه الشقائق ، والورود
والموت تُحفر - أينما يخطو - المقابر واللحود
وتمرّ بين فجاجها اللذات ، حاملة ، تמיד
سكرى.. وأشواق الورى ترنو الى الأفق البعيد..
وتظلّ ترقص للآسى ، للهو ، أشباح الدهور
حتى يوارى ضباب الموت في وادي الدثور
وتظلّ تُورق ، ثم تُزهر ، ثم ينشرها الصباح
للموت ، للشوك الممزّق ، للجداول ، للرياح
بسمات تغرّ ، حالم ، يفتّر في سهو السرور
وورود روض ، باسم ، يصفي لألحان الطيور
وتظلّ تحفق ، ثم تشدو ، ثم يطويها التراب
قُبَلٌ ، وأطيّارٌ ، تغرّد للحياة ، وللشباب
وتظلّ تمشي في جوار الموت أفراح الحياة..!

ويغرّد الشحرور ما بين الجماجم والرفات
والارض حاملة : تغني بين أسراب النجوم
أنشودة الماضي البعيد ، وسورة الأزل القديم ...

٥ شعبان ١٣٥٠

١٦ كانون أول ١٩٣١

زوبقة في ظلام

لو كانت الايام في قبضتي أذريتها للريح ، مثل الرمال
وقلت : « ياريح ، بها فاذهبي وبددتها في سحيق الجبال ،
« بل في فجاج الموت .. في عالم لا يرقص النور به والظلال .. »

* * *

لو كان هذا الكون في قبضتي ألقيته في النار ، نار الجحيم
ما هذه الدنيا ، وهذا الوري وذلك الأفق ، وتلك النجوم ؟
النار أولى بعبيد الآسى ، ومسرح الموت ، وعشّ الهموم

* * *

يا أيها الماضي الذي قد قضى وضمّه الموت ، وليل الأبد !
يا حاضر الناس الذي لم يزل يا أيها الآتي الذي لم يلد !
سخافة دنيّاكم هذه تائهة في ظلمة لا تُتحد .. !

٧ رمضان ١٣٥٢

٢٤ كانون أول ١٩٣٣

الشابي في طور

- هو شاعر تونس الكبير .
- وُلد في مارس سنة ١٩٠٩ ببلدة « الشابية » إحدى ضواحي توزر.
- تلقى تعليمه الأولي في المدارس القرآنية .
- أتم حفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة .
- التحق بالجامعة الزيتونية ونال شهادة التطويق سنة ١٩٢٧ .
- تخرج من كلية الحقوق التونسية سنة ١٩٣٠ .
- توفي في اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٩٣٤ بمدينة تونس ، ودُفن بمسقط رأسه « الشابية » .

الفهرس

صفحة

٥	
٧	
١١	الجديد
٢٩	شابي
٤٥	ران
٦١	شعر الشابي
٧٣	شعر الشابي
٨٧	شعر الشابي
٩٩	شابي
١٠٧	شعر الشابي
١٢٥	أدب جبران
١٣٩	ب شعر الشابي
١٥١	مدرسة حافظ ابراهيم
١٦٧	مجربته الشعرية
٢١٥	ماقدا ومنظرا
٢٣٣	شابي

٢٣٥	ن في هيكل الحب
٢٣٩	المجهول
٢٤٣	كليك للحب
٢٤٥	ل وادي الموت
٢٤٨	الجبار
٢٥١	الضائعة
٢٥٥	الحياة
٢٥٩	الأم
٢٦٥	ة في ظلام
٢٦٧	ني في سطور

عدد الناشر : ١٠٠ . ٢٦ . ٧٨

طباعة انتربرينت مالطاليمتد

لماذا أحببت الشابي ؟

سؤال يتكفل بالرد عليه هذا الكتاب ، ذلك لأن ما أحببته من الشابي ، كان كثيراً متنوعاً ، لا يقف بي عند حدود الإعجاب البسيط العابر . فهو لم يكن من الشخصيات التي تغنيك منها الوقفة العاجلة ، ولكنه شخصية غنية ، سخية ، إذا عدت اليها مرة بعد أخرى فلا بد أن تخرج من مصاحبتها ب زاد جديد ، و ثروة نفسية . وأعظم ما أعجبني في هذا الشاعر الكبير ، صحة فهمه لرسالة الشعر . وما أقل الأصوات التي تنطلق من الأعماق ، كما ينطلق صوته الخافت الهامس في قصائد الحب ، والعاصف الشائر في قصائد الوطنية . انه صوت عميق ، بقية من تلك القلة الخالدة من الشعراء والفنانين الذين يغمسون أقلامهم وريشهم في الدماء ، ويرسمون بدم قلوبهم قبل أن يرسموا بالألفاظ والألوان . وتلك مزية لم تنلها الا القلة التي اصطفها الله لابداع رسالة الفن ، ورد الناس الى الحياة الفنية الرفيعة التي تجدد فيها الشخصية الانسانية امتدادها . . .

الهلال العربي للكتاب

عجالة : ١٠٠٠ - شارع بركة المحمودي من ب ١٨٩ 3 طرابلس - ليبيا 47 257
١٠٠٠ - شارع جويوملة (ليسانس ساهما) من ب 104 1 طرابلس 284 100

التمن : ١٠٠٠ - ١٠٠٠ - ١٠٠٠